

عبد العزيز مشري

الأعمال الروائية

الجزء الأول

صالحة

المجلد الثاني

صدرت الطبعة الأولى ضمن سلسلة " مختارات فصول " الصادرة عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب برقم ١١٦ في يوليو ١٩٩٦م٠

هل قال الناس أن المطر لا يزال رعده في البحر ؟

وهل علموا أن السحاب يورق بالبرق والرعد

والماء ؟

وهل بلغت مداركهم أن عنب الحصرم الـــذي

لم يستو ..

سيتفجر بالنضج والحلى حين يحين قطافه ؟!

لا ريب .. لا ريب .. لا ريب ..

- ١ -

● جرادات هزيلات حمر ، تحط علـــى الأشـــجار المنثـــورة في الوديان وسفوح الجبال ، كانت .. تتعلق من أفواهها وأرجلـــها، بكل ما تقع عليه من ورق أو نبات أخضر ، وكانت (صالحـــة بنت أحمد) ، تزامل جارتها ، وتصطحب معها بنتها ذات الثماني .. إلى الوادي ، وكان الوادي بعد حرث الفلاحين ، وهبوط ماء السماء قد بذر بالذرة البيضاء والموســـم خريـــف ، والـــزرع الأخضر الراوي يكاد يفيض بالوادي .. إنها الذرة ، الذرة الـــتي سينفق على رعايتها الزراعون شهورا من الســـقاية والرعايـــة، وطرد الطيور منذ بداية كل فجر ، وأتعاب أخرى ينسيها يـــوم الحصاد .

جرت (سعيدة) ذات الثماني خلف جرادة .. تطير ، وتقع فتعثرت ، وسقطت على يديها .. لكنها أمسكت بها ، وصاحت فرحة : اصطدتها .. اصطدتها ، فضحكت ، أمها ، وقالت :

(اصحي ، لا تخمشك) ، فخافت (سعيدة) وألقتها ، كانت الجرادة تعتمد على ما يشبه الساقين الطويلتين المثنيتين ، وتقفز إلى أعلى فتطير ، وكانت الساقان منضودتان بشرشرة حادة قصيرة كالمنشار ، ومدت الأم يدها ، فقبضت على الجرادة ، وقطعت الساقين الطويلتين، وحينها عجزت الجرادة عن الفرار .

كانت (سعيدة) فرحة فرحا ربما تجاوز فرحتها بثوب العيد، فقد رأت الجرادات بأعداد لم ترها من قبل ، ومنت نفسها بعود طويل كالعصا تنضدت على طوله جرادات كثيرة ، وحين تعود إلى البيت تشويها دفعة واحدة غير أنه ما لبثت أمها أن دعتها للعودة إلى البيت ، فقد رأت جارتها التي ملأت قفتها بالعشب والنباتات ، أن الشمس تدخل في الظهيرة ، والنهار يحمى ، وحين كانت تسير إلى قرب خطوات أمها كانت تفيض بالبهجة من أطراف أصابعها، وطفح صدرها الصغير بالكثرة الباغتة التي لم تعتدها من قبل، وقالت (صالحة بنت أحمد) لجارتها :

(اسمعي يا فلانة .. الجراد يزيد .. في كل مكان)

(لا.. لا ، إن شاء الله ما يزيد علينا)

ردت وفي صدرها دعاء ، بأ لا يهجم الجـــراد علـــى المـــزارع الخضراء فيفنى حتى الأعواد فيها .

وحينما اقتربتا من الساحة تساعدتا ، وكـــانت رائحـــة طريـــة خضراء ملفوفة بالطين ، تسيل من حـــــــواف "قفتيـــهما ، تدفـــق بـــالندى ، فتجعل البقرة ترفع رأسها ، وتمدد رقبتها المتهدلة كالبيرق المخملي .

أخذت "صالحة بنت أحمد" من العشب والنباتات المضغوطة داخـــــل القفة ما يملأ فراغ اليدين المنفرجتين ، وألقت به أمام منخري البقـــرة، وهي تقول بصوت يكاد يسمع :

(كتب الله علينا الشقاء .. من البيت إلى الوادي ، ومن الـــوادي إلى البيت ، هيا.. انظري ، بعد قليل يؤذن الظهر ، وأخوك يقـــلاه الجوع والظمأ في المهد .. (يا قطع بطني عليه) .

انفلتت (سعيدة) تجري إلى الداخل ، وفي يدها قـــلادة مـــن العود قصيرة منضودة بالجرادات .

***

كان صمت البيت يغرق في الظهيرة ، وكان يبدو كالفراغ الذي يخلف أناسا رحلوا على التو إلى مكان بعيد .

مشب النار خال من أي إناء ، ومكتظ بالرماد ، والنار منطفئـــة وفي ركن الغرفة آنية مهملة لا يبدو عليها أثر لطهي قريب ، ولم يكن هناك هسيس ، أو طنة ذباب ، أو دبدبة قطة .. حتى الدجاج كـــان بعيدا في الساحات الخلفية للبيوت القليلة المتجاورة .

في الواجهة .. كان وتد بارز علق به حبل طويل ، ربط بأســفله كالدلدول مهد من جلد الماعز المدبوغ .. فجأة تحرك ، وخرج مـــن طرفه رجلان ورديتان قصيرتان ، وضجتا مع بكاء متقطـــع بـــالذعر والسكون الراكد وقت إذ دخلت (سعيدة) وعمـــــدت خطواتهـــا القصيرة إليه ، فكشفت غطاء أبيض مردد الحواف ، وأطلت برأســـها المعصوب فبدت كـــالإصبع المعقوف ، وقالت مهدئـــة : (يقطـــع نصيبي)!

ثم وضعت مضادة الجراد ، واحتضنت المهد إلى أعلى ، وأنزلتـــه على ركبتيها ، ثم على الأرض .

وحيث كانت (سعيدة) تناغي أخاها الرضيع .. دخلت قطـــة نمرية الكساء ، واختطفت عقد الجـــرادات بخـــوف وحـــذر ، ثم جـــرت به إلى الخـــارج ، وحينئذ فـــرطت (ســـعيدة) كلامـــا حـــادا من الشتيمة والدعاء : (الله يقطع نصيبك . يا شيطانه) .

كانت البقرة تقف كالرقعة المثمرة بأثداء ســـتنال فـــرك يديـــن بضتين قويتين على حلب الضرع ، وكانت تنهمر كالمنهـــــومة في خضـــارة العشب الراوي تحت فمهـــا وقالت (صالحة بنت أحمـــد) لرضيعها المنفطر بالصراخ : (الله يقطعني ..خليتك تبكـــــي مـــن الصبح) ، ثم ألقمته ثديها .

كان الرضيع يمتصه قليلا ، وينقطع ليصيح قليلا .. ينظر حولـــه بعينين لا تغمضان ويخبئ وجهـــه المشمشـــي في صـــدر أمـــه، وكـــانت (سعيدة) تفتش بين ركام قليل مبعـــثر مـــن الحطـــب والأدوات المترلية ، عن إناء يشبه الطاسة .. تصب في فراغه ماءً بارداً من القربة المعلقة قرب مشب النار .

وكانت القطة التي أكلت الجرادات .. تدخل بخطى ثقيلة دون مواء ، وتلعق شفتيها اللتين تشبهان رئة الحمل ، تموط بذيلها الممتد كالعصى المعقوفة خلف وركيها .

والتقطت (سعيدة) حذاءها البلاستيكي المقلوب قربها، وقذفت به القطة الغادرة الشيطانة ، و كستها بنظرة غاضبة مصحوبة بالسباب ، وقالت (صالحة بنت أحمد) لابنتها :

- (يا بنتي .. كان الجراد من رزقها)
- (إلا ، قولي إنها مسعورة)

قالتها ، وانصرفت توضب حطبات مصفوفات ، لتشعل فيها النار ، وتركب دلة القهوة السوداء الكبيرة ، ثم تدب بأصابع نحيلة ناعمة تهندس مكونات الجتربيل والهيل ، والقرفة .. لتضيفها إلى حبيبات القهوة المحمصة .. جميعا في المهراس النحاسي ، يبدأ الرنين : دقا رتيبا خفيفا ، فيكون مطحونا فائحا بنيا : البن الذي حمصته قبلا وكان أخضر وقاسيا .

أكدت لها أمها ، أنها بنت (حرة) تعتمد عليها ، وتنفعها وقــت الحاجة .

* * *

في تلك الهدأة الرابضة كالطمأنينة والنعاس ، محطة متقطعة مــــن وقت الظهيرة والظهر .. تحمل فيها كل الأجسام المتعبة ، لتســـــكن في القيلولة .. كانت الغربان تحلق فوق ثمار التـــين الشـــوكي مثـــنى وثلاث وفرادى ، والحمير تقف في الساحات القريبة من البيـــوت .. تستحم بحمى الظهيرة ، والثعابين قد تخرج من جحورها .. تســـــلخ جلودها في الطرقات ، وتدور عن الماء والندى ، ومخارج البيـــوت لا تكاد تكشف عن أي حركة لسكانها .. هنا في هذه الحالة الآســـــنة، كانت غيوم الجراد الحمراء ، تنساق بهديرها من الجنوب ، تدفعــــها رياح كســـلى ، وتهبط على كل أخضر في الجبل والوادي .

حينما كان الناس يتنفسون راحة قيلولتـــهم .. كـــانت قبـــائل الجـــراد المسلحة بالجوع والهزال ، تغير على المزارع الآمنة والنابتـــة بالذرة وتنهب بأفواهها كل النباتات والحشائش والشجر ، و كـــانت الساحات التي تطل إليها البيوت ، أيضا تفور بجحافل قليلة متناثرة .

لقد كان صيدا وافرا ، وفرة الماء الشتوي في الأنهر الصغيرة .. صيدا يصيب النابض في صدر (سعيدة) بالغثيان والبطر والخوف، فقد خرجت إلى الساحة ، ودون جري .. كانت تمد يدها في الأرض فتأخذ من الجرادات ، وتنضد ما تشاء من القلائد و تبللت يداها بسائل بني لزج يخرج من الجرادات ، ويطفئ بهاء الحناء في راحتيها أمام النار المتناسلة في المشب . فكانت تشوي ما تلقيه فتحرق أعدادا ، وتذهب بها في الجمر والرماد ، تنضج أعدادا أخرى بقيت تحت رعاية الأصابع القصيرة التي لم تسلم من اللذع الحارق ، ورأت (سعيدة) تلك القطة المسعورة ، في ركن الساحة تأكل الجرادات وتتقيأ ، تجري مسافات قصيرة لتصطاد وتأكل بكل رأسها ، بل أن جسمها الذي يشبه النمرة المرقطة الصغيرة .. يهتز جميعه وهي تفترس ولا تشبع ، تدفع بهواء متقطع من بلعومها .. وتتقيأ ، ثم تعود فتأكل ، لقد أوجد هذا في نفس (سعيدة) حسا مباغتا وجديدا من الامتلاء . الامتلاء الذي يغدو كالممر الفائض ، ويغدو مقرفا وداعيا إلى الضجر المخيف.. إنها الطوفانية المملة .. تلك التي تصيب قلبا صغيرا ، كقلب (سعيدة) فتحيلها إلى متأملة صامتة ، مشفقة ، داعية متضرعة .

كانت أمها تتلمس بعض ترفها الحزيـــن ذاك ، حـــين قـــالت (سعيدة) :

- (يا رب ..) .
- (ويش بك يا غلتي ؟) .
- (الجراد كثير .. اكثر من المطر)
- (يا بنتي .. الله ، يعطي من الجراد .. الخير والشر)

قطع كلامهما صوت الجارة ، التي ما لبثت أن دخلت بعـــد أن ألقت عن كتفها عددا من أكيـــاس (الخيـــش) قـــرب العتبـــة، وانهمـــرت تدعو وتشكو ، مؤكدة أن خوفها كان في محله ..

فها هو الجراد يغطي الأرض ، وقد أتى على كل مزروع النـــاس .. فأكل الذرة ، وأكل حتى فروع الطلح والعرعر .

رفضت أن تقعد ، وراحت تدور مع (صالحة بنت أحمد) عـــن أكياس فارغة ، يخرجان إلى الوادي .. يملأنها بالجراد الوفير .

أهل القرية خرجوا بأكياسهم الكبيرة ، وأخذ بعضهم حميرهم معهم ..ليحملوها بالجراد الثقيل ، وخرجت (صالحة بنت أحمد) برفقة جارتها .. مع الناس حيث انتشرت هباهب رياح ما بعد العصر الباردة ، كان الناس يجمعون بقدر ما يمكنهم من الجراد .. يضعونه في القدور الكبيرة ، وقد غلت بالماء الطافر تحت النار .. سيطبخونه مع الملح ، فينشفونه ويأكلونه في أيام جافة من السنة ، مع الخبز .

وكانت(صالحة) ، قد صبت بعضها مع كيسها الكبير ، الذي حملته على رأسها من الوادي .. في قدر ، هو أكبر القدور الثلاثة في البيت .. حتى يفيض ويستوي محتواه ، ثم تعيد الكرة مرتين، و ثلاثا ، إلى أن تطبخ كل ما جاءت به في كيسها ، وكانت (سعيدة) قد غسلت عجيزة أخيها الرضيع من أشياء لا تذكر ورطبت له مهده ، ولملمت حطبا من الساحة .. أشعلت فيه النار على المشب .

سألت أمها :

- (متى يبيح الجراد ؟) .
- (يمكن ، يصبح الصبح ، ويكون قد أفلح) .

- (.. وين ؟) .
- (.. أرض بعيدة لناس .. يأكل ديارهم).
- (و ليش الناس ما يقتلونه ؟)

التفتت الأم إلى مهد رضيعها ، الذي كان على التـــو يتحـــرك، ويطقطق من عقدة الحبل الملفوفة على (عقال) من العـــود القـــوي الأملس .

* * *

زحفت الأيام ، وخلفـــت وراءها خريفـــا بـــلا ذرة ، إذ اختفـــت مع نزوح الجـــراد و تساومـــت (صالحة بنت أحمـــد) الأرملة ، مع حلو الأمور ومرها ، و لم يكن ينقصها عن الآخريـــن ناقص .. تزرع مثلما يزرعون ، وتسكن في دار الحجر والطـــين، مثلما يسكنون ، وتلبس شبه ما يلبسون .. بل أنها ربما تميزت عن بعضهم ، بأن تحت يديها بقرة ، لم تفـــرط في اقتنائـــها برغـــم حاجات طرقت معيشتها ، فلم تفتح لها .

واليـــــوم ..

جاءت العجوز (فاطمة) وأسقطت في بيت (صالحة بنـــت أحمد) كلاما : اسمعيني يا بنت الرجـــال مثلـــك لا تقعـــد دون

رجـــل ، يحميك ويحمي أطفالك ، ويصون أرضـــك وحلالـــك مـــن يد الطامـــع ، الدنيا لا يؤمن قادم أيامها ، كوني عاقلـــة .. اسمعيني.

وراحت تنثر نصائح القول ، من فم وسيع كفـــم القربـــة، و تسوط بيديها ما قدامها من فراغ ، كأنما تود تدعيـــم قولهـــا بالحركة.

كانت (صالحة بنت أحمد) تقعد متربعة في وجهها وفي حجرهـــا رضيعها الغافي ، تعصب رأسها بمنديل على (شيلة) سوداء تغطـــي كل الرأس والأذنين والرقبة مثل كل النساء ، وفي أنفها إلى اليمـــين، نقطة فضية مزخرفة من الحلي ، و (حزام شال) تتجمل بـــه مثلمـــا تتجمل (فاطمة العجوز) ، وظهر وجه (صالحة بنت أحمد) محاطـــا بالسواد ، طيبا مألوفا أموميا ، وعلى قســـماته الســـمراء الفخاريـــة حـــزن مختبئ ، وابتسامة منطفئة على شفتين رخويتين ملمومتـــين، وكانت عيناها مدعومتين بجمال فاحم يسكـــن محجـــرين يـــبرزان قليـــلا ، وتلك صفات حملتها (سعيدة) إلا ما يختلف مـــن فعـــل الأيام ، على وجه مشارف وسط العقد الثالث من العمر . كـــانت (صالحة بنت أحمد) تشاغل بنتها ، التي تبذل طاقتها في شأن طلبتـــه

منها أمها ، ولعلها لم تكن بغائبة النظر عن مجيء العجوز (فاطمة) ذلك أنها قابلت أمها ذات صبح في الوادي ، وقالت لها مثلما جاءت به الآن ، مع كثير من وصف ما يميز رجل ، يشهد له أهل القرية بالصلاح وخوف الله ، (عامر) ، (لو وضع يده على الجرح لأبرأه) غير أن صالحة بنت أحمد أجابتها ساعتها ، بأن دمعتها لم تجف بعد على المرحوم ، وأنه يخرج لها في عز نومها ، وحين تكون وحيدة، أو والجة في خواطر صدرها ، التي تسرقها في حضور عيالها .

ووقفت (سعيدة) ويداها مهملتان .. تنظر إلى العجوز (فاطمة) تود لو قالت لها بعالي الصوت (هيا انقلعي من بيتنا)، ولم تشأ .. لخجل طاغ ، أن تسأل أمها ، أو تشير بلفتة مهما كانت صغيرة والآن ..

(أشربي القهوة يا (فاطمة) وانقلي حذائك .. انك ستعرفين طريقا جئت منها.. ليست (صالحة بنت أحمد) بناقصة في تدبير أمر حياتها وعيالها ، وما ترك مخلفها لها فراغ البيت والوادي .. كانت مثل أعز القوم ، عندها الأرض الحية ، وعندها

البيت الحلال.. ليست بحاجة إلى رجل .. لا (عامر) ولا خلافـــه. يخطفها من بين عيالها بكرة النهار ، يقـــول لســـان المتشـــدقين .. انظـــروا ، باعت عيالها ، لتتبع خيال شبابها .. سيقولون .. نســـوان ناقصات العقل والدين ، ذهبت وراء رغبتها).

قالت (صالحة بنت أحمد) والكلام يخرج مضغوطا مـــن بـــين أسنانها :

- اسمعي يا عمة فاطمة .. ما ابغي أسمع هذي السيرة .
- أشهدت الله عليك .. هذا نصيبك.

وقامت إلى حيث حذائها عند عتبة الباب ، وهي تبتلع همـــهمات معوجة بعد مضغها في فمها الكبير الواسع .

* * *

السماء رمادية ، والرياح تموج بكل رطب في طريقها ، الوديـــان شاحبة ، بلغها النهار بضوئه الغمامي .. ولا من وابل يضرب بنوئـــه هذا الشحوب الطويل.

ألقت (صالحة بنت أحمد) بذور حنطتها مع القوم ، وقعدت في بيتها مع القاعدين ، يرجون رحمـــة الســـماء .. تطيـــح علـــى

العبـــاد ، فتحيي بذورهم الميتـــة تحت التراب . (وماذا يملــك العبد الكادح في وقت أجحف الجـــراد في علـــى زرع الخريـــف، وقضت الشهور عدها ، وجاء وقت بذر حنطة الصيـــف ، فقعــد يعــد الأيام ، كما يعد مفقودات القطيع ، ألا فليدع الله .. دعــوات نقيـــات صادقات ، مع صلوات الفجر والعشاء مثلما دعت (صالحة بنت أحمد) في سرها والعلانية .. دعاء لا يرده عالم بهوان العبـــد في شـــدائد القحط والانتظار .

كانت البرودة تحمم حتى الصخور ، وتجمد المـــاء في العشـــبات الغمام ، وتحجب شموس الأيام ولا تمطر .

امتدت يد (صالحة) إلى كيس الحبوب ، الذي كانت تحفظـــه بذورا للخريف القادم ، فعملت منه طعاماً في الصبـــاح والمســـاء .. قالت ، اليوم ، يوم لا يخبأ فيه عن الجوع شيء ، وكذا فعل الكثير .

جاءها (عامر) قال أنا رهن إشارتك ، عندي المال ، وعنـــدي الحلال ، وكل ما تحتاجه حاجة المحتاج في البيت والوادي ، اطلـــبي تجدي وما يزيد .

لم ترد أن ترفع عليه الصوت ، عيب لو علم الناس مجيئه في خبايا السكون .. قالت (كثر الله خيرك يا فلان ، عندنا كل شيء) .

كادت أن تطلبه كيلة واحدة من الحنطة .. لكنها حبست لسانها في فمها (فهذا رجل لا يخفى لؤمه على أحد ، ويراهن ، ويضـــارب بالمال ، ويربي على الآخرين أموالهم ، وبيته يكتنز بالحرام ولم يـــأت يعرض عليها يد العون ، إلا رغبة في الزواج مني بهـــا نفســـه منـــذ القديم.. رغبة في البيت والمزارع ، والحلال .. يضيفه إلى ما ملك مـن حقوق القوم مع الأيام) .

قالوا عنه ، رجل طيب وصالح .. انظروا يســـابق الإمـــام إلى الصلاة ، لا يخلو مجلس يقعد مع الآخرين فيـــه عـــن ذكـــر الله ، لم يقابلـــه صغير ولا كبير في الطريق إلا وسمعه يهمهم بالشـــهادتين، ويفـــوه ويلـــوك بالتسابيـــح ، فإذا ما قرب منه مـــاش .. رفـــع (عامر) صوته (بالتسبيح) ، والحوقلة .. آمين ، يا عالما بكـــل ذي علم عليم ، قالوا عرف كيف يمضي في طريق ربـــه ، فرزقـــه الله ، ونمـــى له الخير وإلا فما الذي يجعل من (عـــامر) صـــاحب أقـــل المزارع.. أن يغدو أغنى أهل القرية ، وكـــل يـــوم يزيـــد في المـــال والحلال؟!

كان (عامر) إذا أراد شيئا .. أوقع بين متنازعين ، فجاء إلى أحدهما وحلف باليمين ، أن كذا وكذا ، فكان الآخر يصدق يمينه .. كيف لا ، وهو الطيب الصالح ؟!

يؤكد على من حلف إليه ، ألا يبوح بقول أفضى به ، ويأخذ منه الوعد ، راح ينمو ، وينمو بالحرام يقتطعه من حقوق الخلق .

في كل سنة ، وقبل شهر الأضحى بأسبوع .. يسافر للحج، ويعود بصندوق ملون من الصفيح .. لا أحد يعلم ما يحويه، وعندما يجيئه من يهنئه ، ويبارك له في حجته .. يخرج منديلا معجونا من جيبه ، مكتظا برائحة غامقة تشبه رائحة الريحان الجاف المدهون بالسمن ، ويتلمس مفتاحا صغيرا أصفرا ، ربطه في طرف المنديل ، فظهر كقطعة الذهب على الحمرة الداكنة يقوم إلى الصندوق ، ليفتح الغطاء ، ويدفن يده في الداخل، ليخرجها ممسكة بـ (مسواك) الأراك بطول شبر أو يزيد قليلا ، ويقدمه قائلا : خذ يا فلان .. بركة الحج من مكة ، والله جئت به على اسمك .

فيتناوله فلان ، وهو يردد في سره : باسمي يابو المساويك ؟!

أما وأن (عامر) لا تخفى رائحة فمه المخرجة بســـــواك (الأراك)، فقد كان يحضر لابنته الوحيدة المتزوجة (عزة) ، وفي كل ســفرة .. قطعة قماش لا تلبث بعد غسلها ، أن تتضاءل بأكثر مـــن مســـاحة الربع ، ويخطئ زوجها الذي (لا ينش الذبـــاب) كمـــا يقولـــون، فكان ينال مثلما ينال الرجال الآخرون .. سواكا جديدا ، يدعـــك بـــه فمه من أي الجانبين شاء .

ومرارا .. كانت (عزة) تتصدق بهديـــــــة أبيـــها إلى روح أمها التي ماتت ، كما تبكي عليها (عزة) . (ماتت ، وما أشـــبعت بطنها) .

* * *

عندما عزمت (صالحة بنت أحمد) على بيع نثار مجمع من حليها الفضي فتحت صرة قماش أكبر من قبضة اليد بقليـــــل ، فقرقعـــت الحلي ، وخلخل بعضها بـــــالصوت في بعـــض : (لازم) يلبـــس في النحـــر، و(حجول) ثلاثة ، وخمسة خواتم كبيرة مطعمـــة بثمـــرات حمراء بارزة .

هزتها في راحتها ، وقالت : (الآن يا بنت فلان جاء زمن تبيعين فيه حليا زانك يوم عرسك.. لكن ، يأتيك يوم ، تعوضين فيه ما سوف تبعينه بأحسن منه).

قعدت فجرا على الطريق القريبة من البيت ، وقبل أن تمتلئ بالهابطين إلى السوق .. قابلت رجلا بلغ الشيب أكثر شعره، يسرح على ظهر حمارة قصيرة بيضاء يدلي قدميه إلى جانبي الخرج، ويهز من رقبة الحمارة ، فتسير في الطريق الطويل المتعرج .

قالت (صالحة) يا عم ، خذ هذا حلي فضتي كلها ، بعها بما تراه صالحا .. سأجزيك من ثمنه ثمنا لتعبك ، يجزيك الله كل الخير .

اشترت الشاي والسكر، وكسوة كاملة لها ولـ (سعيدة)، واشترت قهوة وجتربيل وما يلحقهما .

كانت (سعيدة) ترتع في حبور طاغ ، حين دعتها أمها لتثقب طرفي أذنيها بإبرة حامية بعدها ستعلق حلقين صغيرين مضيئين في كل عين .

واليوم ..

كانت تركب على ظهر الحمارة ، مصاحبة أمها إلى البئر ، معها قربتان مطويتان .. ستملآن بالماء ، وستدلي (صالحة) بدلو ثقيل إلى عمق البئر التي تلتهم اثنتا عشرة قامة من الحبل المتين ، وتشده بعضل قوي ، لا يقدر عليه الصغار .

وكانت الحمارة الوديعة.. ولسبب أخافها ، وحرك قوائمها تنط كالجرادة المفزوعة ، نطت عن ظهرها (سعيدة) وخبطت بجسدها اللين على صلابة الأرض ، ولم تجد الأم ، بعد شهقة تركت فاها مفتوحا .. سوى أن صرخت (من غير لسانها) كما تقول .. (يا شق بطنك يا صالحة) انكبت بجذعها النحيل ، رفعت بنتها وهي تمسح خديها وجبينها ، وتدعو الله دعاء محتشدا ، ألا يصيب الصبية بأذى .

جرت الحمارة بنعرة حماسية مفاجئة ، ثم وقفت متصلبة بأذنين طويلتين واقفتين ، وتزحلقت في الطريق المتثني إلى البيت .

لم تبك (سعيدة) ، ولم تشك من الرضوض إلا بعد حين ، إذ ملأ الوجع مفصل المرفق في ذراع اليد ، وأوجست الأم أن تكون ذراع ابنتها قد كسرت .

في امتداد أشجار اللوز المحيطة بالبيوت القليلة المتقاربة ، هنـاك عند مدخل الطريق القادمة إلى الساحة .. كانت امـرأة كالخيمـة المتحركة ، تسير ببطء غير معـهود ، وفي يدهـا صبيـة معصوبـة الـرأس ، بثوب مزهر وحذاء بلاستيك يسمع له رطـم بـالأرض تتعلق برقبتها في قطعة قماش بيضاء مبتلة بالسمن - يدها اليسرى .

أوصاها العم (مرزوق التومى) ألا تأكل التمر ، ولا تشـرب الشاي ، بل تمتنع عن أي طعام في حلاوة السكر .

قال لــ (صالحة)

- (اسمعي يا بنت أحمد ، اطبخي لها كل يوم بيضتين) .
- (ما معي دجاج يا عم مرزوق) .
- (اسقيها من حليب البقرة) .
- (جيت بها ، والله ..)

كانت قبل أن تخض حليب بقرتها .. تنتقص منه مقداراً صغـيرا.. تسقيه لــ (سعيدة) التي لا تحب حليب البقرة الطازج ، فهي تشـم فيه رائحة الروث ، وإذا ما أغمضت عينيها لتجرع منه ، فإنها تحتـاج معه إلى بعض السكر ، ولكن أقسمت (صالحة بنت أحمد) قسـما يخرجها من دينها ، أن لم تكن عين أصابت (سعيدة)، فأوقعتها عـن ظـهر الحمـارة ، ودلقـت أوصـاف الحسـن والنباهـة

والقلب الذكي في مسامع جارتها ، التي لم تكن لتحتاج إلى تلك المعرفة العالمة بها وسألت عنها :

- (كيف حال ذراعها . اليوم .. يكون لها ثلاثة أدوار) .
- (أيو الله ، أبطا ، الكسر) .

ومع أن كل الكلام ، كان يتسرب مفهوما كاملا ، محفزا يبعث النشوة والامتلاء داخل (سعيدة) ، إلا أنها كانت تبدو مشغولة بأخيها الرضيع ، محاذرة ألا يطأ شيء ما ذراعها .

عندما تدحرج وقت الظهيرة نحو العصر ، كانت السماء تبخ رذاذا نديا على واجهة الأرض ، وكانت الحجارة وأعواد الشجر العارية ، وبناء البيوت .. يبثون لمعانا خفيفا تحت الضوء النهاري الساقط بالرغم من الغمامات الخفيفة.. وقتها خرجت (صالحة) بنتها إلى العم (مرزوق) ، الذي كتب الله في يديه الشفاء ، صحيح أنه يجبر الكسور من عظام الكبار والصغار..لكنه (بفضل الله) ماهر في ترميم كسور صغار العمر .

عندما أحضر العم (مرزوق) طاسة صغيرة ممتلئة حتى النصف بالسمن الفاتر ، أهمل لفافة الشاش ، وكانت تحمل لونا ترابيا ، وتلك حالة القماش المبتل بالسمن .. خلع الجبارة من مكان الكسر،

وتلمسه بأصابعه المرتعشة ، وكانت (سعيدة) تتشاغل عن الوجـــع، بالنظر إلى مفاصل أصابعه ، فقد كانت متورمة ، وبركت ، لا تتلاءم مع طولها ومخافتها .

ظهرت ذراع (سعيدة) وارمة تلمع من أثر السمن ، ومـــوردة تختلف عن حنطية البشرة .. دعكها دعكا بطيئا ، وهي تقعد محاصرة بذراعي أمها .

تعبت (صالحة) وهي تمد بريالات مبرومة .. كانت قد نـــوت عن طيب خاطر ورضى .. أن تقدمها لعلاج ابنتها .. إذ حلف العـم (مرزوق) بالطلاق ، أ لا يدخل جيبه منها قرش .

عادة يفعلها وقتما يلح عليه ملح في أمر لا يرغب فيه ، وقـــال وهو ينضح من فمه صوته النحيف :

- (اسمعي .. يـــا بنت الحـــــلال ، أولاد القـــريـــة أولادي ، أحـــد يأخـــذ على أولاده عطــــا ؟ !)

- (لا ، يـــا عــــم مـــرزوق ، هذا تعـــبـــك) .

- (حلفت بالطـــلاق .. هذي بنتي) .

مضت (صالحــــة بنت أحمد) خجلة يفيـــض لسانهـــــا بعبارات الامتنان ، وكـــانت زوجة العــــم (مـــرزوق) ، تـــودع

(صالحة بنت أحمد) من على عتبة الباب الخشبي نصـف المفتـوح، وتمدها بدعوات لا بد منها في مثل هذه الحالات .

كانت كتف الأم تحمل المهد ، وكان المـهد يرسـم خطـين غـائرين قليلا ، ويبقى الرضيع نائما هادئا ، وكانت خطـوات الأم تمدهده وتحلي الغفـوة في جفنيه ، والتهمت (سـعيدة) البيضـة المسلوقة الـتي منحتها زوجة العم (مرزوق) كلها بل أنها لحسـت بقايا من بياضها كانت تلتصق بالقشرة ، وفي مشـيتها .. كـانت تتخلف خطوات قليلة ، فتلتفت إليها أمها ، وتدعوها للحاق بها

وسألت (سعيدة) أمها عن الثعابين :

- (تخرج في المطر ؟) ؟
- (لا ، ترقد أيام المطر والبرد) .

* * *

و ..

جرت الأيام كما يجري الألم في العظم وجادت الأرض على قدر عناية الناس بها .. فحصدوا ثمرة زرعهم : حنطـة (حمـراء كمـا الذهب) ، وحصدت (صالحة بنت أحمد) (حصادهـا) ، فـرزت الحب عن العلف وضعته في ركن الدار ، وأدخلت العلف في مبـات

الحلال ، وقالت لقلبها المطمئن (الآن يا بنت أحمد ، تنـــامين علـــى راحتك ، لا يخيفك على العيش هم جديد ، لك على الراحة موســـم لا ينقص عن نصف السنة ، وبعدها .. يخلق الله ما لا تعلمين) .

كان الناس قد توضئوا ، وأحسنوا وضوءهــــم ، وتوافــدوا إلى المسجد في قلب القرية .. خلف فقيههم جميعـــا ، يقولـــون آمـــين، وخلفه خرجوا إلى سعة مسجدهم ، يتحايون وينظرون أمـــراً يعلـــن مـــن الفقيه جديدا .. كانوا يتساءلون عن نفـــر يلبســـون محـــارم متقاطعة علـــى صدورهم ، ويحملون بنادق معلقة في جنوبهـــم ، ولم تكن مساءلة الناس عمن يكون هؤلاء إذ يعلمون أهم قادمون كمـــا يقول لســـانهم : (من طرف الحكومة) ، لكنهم لا يعلمون عـــلام قدموا .

وقال الفقيه :

" جماعة الخير .. عمال الحكومة ، جاءوا يلمـــــون الزكـــاة .. كلكم يعرف إللي له وإللي عليه ، إنهم ينتظرون زكاتكم من صيـــف هذا العام ، لا تؤخرون ".

وكان الفقيه قد اعد لضيوفه غداءً دسماً في بيته حيث علقـــوا فيـــه بنادقهم ، وكان يتقاضى نصيبا من الحبوب ، في كل موسم .

قال الناس :

- (فوق العلم يا فقيهنا)

وتلك طاعة المذعن الذي لا يحتاج إلى وصاية .

(صالحـــــة بنت أحمـــــد) في الســـاحة ، تقضـــي شـــأن رضيعها ، وتغسل مكـــان قذاراته ، و كانت (ابنتها) التي أطلقـــت يدها المكسورة من عقالها .. تصب الماء من إبريق معدني صغير علـــى يدي أمها ، و كانت الأم بالصوت الحذر ، تمنع بنتها من دلق المـــاء بهذا التبذير .

وصاح صوت من طرف الساحة :

- (يا عمة صالحة) .

- (من الداعي ؟) .

قالتها وهي لم تقطع انهماكها في غسيل رضيعها ، و بعد لحظات جاء صبي عليه ثوب قصير بلون الغبار على رأســـه عمامـــة بيضـــاء ملفوفة ، و كان كما يديه يفضحان ما يتركـــــه مـــاء أنفـــه طيلـــة الساعـــات ، سلم ووقف يبلغها ، أن أباه أرسله ، لتحضر الزكـــاة اليوم قبل المغيب إلى بيته .

- (و كم هي الزكاة يا ولدي ؟) .

- (أنا ، ما أدري .. أنا مرسول) .

- (يعني .. خذوها من كل الناس ؟) .
- (أنا ما أدري) .

قالها الصبي ، ورشف ماء لزجا بأنفه ، ولم يتخل من وقفته الثابتة كالمسمار ، وعندما تطلعت إليه (سعيدة) بعينين نصف مغمضتين .. رفع يده ومسح المزيج .

أضافت (صالحة بنت أحمد) ، وهي ترفع رضيعها بين يديها :

- اسمع يا ولدي .. (أفل) ، قل له ، انك بلغتي .

وعندما قعدت إلى كيس بركن البيت .. فتقته ، وأخرجت منه كيلتين ، تناثرت حبوب الحنطة من على حواف المكيال ، وكانت ابنتها تمسك كيسا قماشيا صغيرا معفرا ببقايا طحين .. تهيئه لحبوب الحنطة .

وأمها تسكب الحنطة ، وتعد : (بركة ، بركتين) وتهمهم بكلام لم تفهمه (سعيدة) ، ما لبثت أن رفعت منه (يمكن يكون بني آدمين جوعى ، من يدري)؟

وسألت (سعيدة) أمها :

- (أنتي قلتي هذا الكيس ، يبقى) .
- (يا بنتي .. مثلنا مثل بقية الناس) .

أوصتها تقعد إلى جنب أخيها ، الذي يراود نفسه في الوقـــوف إلى جانب الحائط ، أكدت عليها الحذر، لئلا يقترب بجســـمه مـــن مشب النار ، خرجت بالحنطة على رأسها ، إلى بيت الفقيه.

عند حرف ساحة بيته ، كانت رائحة القهوة المهيلة تكاد تخـــرج من الآذان ، والباب مفتوح على مصراعيـــه ، قرقـــرت ضحكـــات عاليـــة متلاحقة ، تنظر إلى الساحة من فوق أحذية كثيرة تنســـدح قرب العتبة.

كان إلى يمين المدخل ، وقرب الأحذية .. بنيـــان قصـــير مـــن أكياس (الخيش) ، بعضها هزيل ، وبعضها مكـــثر بـــالحنطة، الحنطـــة ، أحضرها الأهالي ، وإلى الجانب الأيسر للمدخل ، وقفـــت ثلاث حمـــير ، ربطت من رقابها في أوتاد ، وانشـــغلت إحداهـــن بمكافحة ذبابات عنيدات لقيت من يعاندهـــا ، فـــزادت في الحـــوم والمناوشة.

(عامر) ، الذي لا تفوته مثل هذه المناسبـــات .. قد مـــلأ معدته حتى تجشأ ، وأخرج ســـواكـــه (الأراك) ، وذهب يســـوط به فمه ويوافق الفقيه فيما يرى ويقول :

- (أي و الله يا فقيهنا ، ما قلت غير الصحيح ، نعم ، صدقت) .

كان صوته ينفذ من فتحتي المدخل ، وعبر النافذة الفاغرة بعواميدها الحديد.

فكرت (صالحة بنت أحمد) ، لو تركت كيسها فوق الأكياس ، وقفت ، لكنها رأت أن من الخير ، إبلاغ الفقيه .

وضعت عن رأسها كيس الزكاة ، واستدارت نحو باب صغير، فتح شبرا ، وتسربت من أعلاه دواخن نار وحطب ، فغدا مع الأيام كالمحترق ، ونادت : (أهل البيت ..) أجابها صوت نسائي من الداخل .

لم تقعد (صالحة) ، عندما حلفت عليها زوجة الفقيه . قالت أنها جلبت زكاتها .. هنا فوق الأكياس ، وستعود لعيالها في البيت، ينتظرون .. كما تقول بلغة الجمع .

جاءت إحدى بنات الفقيه بطاسة فوقها غطاء قدر ، قالت، وأمها تتبعها بعينين راضيتين :

- (خذي يا عمة صالحة ، عشا العيال .. بقى من ذبيحة الضيوف).

أخذتها إلى صدرها ، وغممتها بـ (شرشفها) الذي كان يعم ببياضه رأسها وكتفيها إلى صدرها ، وأقفلت مودعه شاكرة .

-٢-

الضحى يجرجر أول ضوء النهار ، ويمر صافياً مبـــهجا مــــن عتبـــات الدور وشبابيكها ، لقد اهتزت كل العيون الغافية ، ونـثرت الرياح الصباحية عن فروع الشجر بعض ورقها ، بل أن كثيرا مـــن الحلال في الوديان والمرابط .. نفذ تحت اليـــد الفلاحيـــة واجـــب العمـــل، وعبأ بطونه بوجبة أول الصبح .

أصبح الصبح بين يدي (صالحة بنت أحمد) على هيئـــة بكـــاء مغمغم لرضيع يحبـــو ويكـــاد يتقـــوم .. تهـــزه على مهـــــل في حجـــرها ، و أمامهـــا تقف بقـــرتها (تسر الناظرين) ، كثمـــرة ملتذة ناضجة .. تكاد تنفجر من أثدائها .

تصنع لها (اللقام) من قصب الـــذرة ، وتلقفه بأعواد خضـــراء لينة من البرسيم ، تمسك بخزامها الممتـــد مـــن أذنهـــا اليمـــين ، إلى منخرهـــا فتفتح البقرة فمها ، وتلقفها دون مضغ كثير .

(سعيدة) في البيت قرب مشب النار ، تركب تصانيف القهوة، تجهزها بحذاقة ، وتنفض بقايا الرماد عن خبزتها الناضجة منذ الليـــل، دفنت قبضتها مرتين أو ثلاث ، في كيس الجراد المجفف ، وكومتـــه في ساحة الصحن ، جانبا من الخبزة وفناجين القهوة ، خرجـــت إلى غرفة تطل إلى الساحة المجاورة ، ورأت أمها توشك على الانتهاء .

قالت :

- (يمه .. هيا ، نتفاول) .
- (جاية .. جاية ، يا بنتي) .

قعدتا تأكلان فطورهمـــا ، وفرط الرضيع كل حركات يـــده، في القبض على رأس ثدي صناعي .. يطبق عليـــه مـــرة في فمـــه،

ويشده ليهزه في يده ، ويعيده . كانت القطة تتربص عن قرب، لتنط على الثدي اللدن .. تقرطه كما فعلت من قبل ، فتدعوها الأم : (بسيس .... بسيس) ، وهي تفرز لها خارج الصحن جرادة محمصة .

سمع على مقربة من فتحة الباب ، صوت حذاء بلاستيكي يفرقع كالكفوف ، وصاح صوت مخشوشن ، عقبته نحنحة حادة :

- (صالحة بنت أحمد) .
- (أهله الله) ، ادخلي .

كان النداء لا ريب في معرفته ، للعجوز (فاطمة) التي حلت حذاءها ، ودلف جسم يعاند في الانتصاب ، وسلمت بابتسامة كشفت عن مقدمة أسنان صناعية ، لا تتناسب مع فمها الواسع، وقعدت قرب ركبة (صالحة) ، دلقت كلاما مدلا .. قالت إنها أكلت فطورها ، وشربت قهوتها منذ الصباح الأول ، فهي تصحو قبل آذان الفقيه ، وكانت قبلا ، تصحو مع آذان الديك ، الذي يؤذن قبل ظهور الفجر بساعات ، ويرج منامها ، فأنزلت برقبته السكين .

وما لبثت أن تناولت فنجان القهوة من يد (سعيدة) ، الـــتي لا تملأ عينيها بوجهها المشدّق ، شربته دفعـــة ، واســـتزادت بـــآخر، قـــالت وهي تقتطع حافة الخبزة ، وتبللها في فنجان القهوة الفائح:

- (خبزتك .. كأنها الذهبة) .
- (بالعافية يا عمة كلي) .

قربت إليها الصحن .. ما كانت العجوز لتنتظر من يعزم عليـــها، قالت مبررة ، والله أنها لولا إحساسها بأن البيت كبيتـــها ، لـــما وضعـــت في فمها لقمة من الصحن ، وكانت (سعيدة) تقتنـــص على مضاضـــة .. فمها الواسع الذي ظهر لها وهي تأكل ، كأنمـــا يدهك عجينة جامدة ، وحين تتوقف عن المضغ ، يتـــورم شـــدقها كمـــا لو أن بداخلـــه قطعة خشب كبيرة ، تنقل اللقمة إلى جـــانب الشـــدق الآخر .. تتحدث وتنفخ برذاذ القهوة ، وكـــانت قشـــور صغيرة بنية اللون من بقايا الجراد الذي تهرسه تحت طقم الأسنان تعلق ببياضها ، فتبدو كالثقوب.

وقالت ، وهي تضع راحة يدها على فراغ الفنجان مكتفية :

(كل علومك هيلة يا بنت أحمد ، لو تطيعين شوري).

ما كانت (صالحة) تظن أنها عادت لتعيد سيرة كـــانت قـــد أنهتها معها على الإباء دون محاورة .

(فماذا جاء بك يا عيارة (عامر) ؟ ، أما خجلت من ردي لك في هذا الأمر . أم أن ريالات أبو المساويك خشخشت بين أصابعك فآثرت فض ماء الوجه ؟ لولا الحياء .. لأخرجتك بيدك من بيتي ، أو لصحت عليك قدام الله وخلقه .. والآن) .

رفعت رأسها ، وعمدت بصرها في وجهها الأصفر ، وقالت :

(هاك يا عمة .. لوجيتي ، بمثل هذا الكلام ، ما فتحت لك بيتي) .

(يا بنت الحلال .. الزواج ما هو بحرام ، أنتي في أول العمر) .

قالتها العجوز ، وأدركت دون عناء ، أن (صالحة) عنيدة ولا تحدث نفسها بعد موت (المرحوم) بالزواج ، لكنها أقنعت خاطرها ، أنها قضت واجبا جاءت من أجله ، وقبضت عليه قبل المجيء قيمة التعب قامت إلى حذائها وخرجت.. قالت وهي تلتفت :

- اقطعي رجلي ، لو دخلت بيتك .

- ....

- أيوه . اقطعيها .

- ....

عندما قابلها (عامر) على حافة الطريق الهابطة ..كان يدعك شدقيه ويبصق على تراب الطريق ، ويحدث صدره ، بان بصقة

بصقها لن تجف قبل أن تجئ (فاطمة) بخبر - من (بنت أحمد) - يقين .

وقفا يتحادثان ، وكان الغيظ ينصب أحمراً في وجه العجوز، ونحاسيا محروقا في جلدة وجه (عامر) وكان على مبعدة تقاس بحذفة الحجر ..

صبيان يجرون خلف جحشة ولود ، انفلتت عن أمها ، وفرت تلعب بهم في كل اتجاه ، ومرت بالقرب من (عامر) ، و العجوز، فنفحت بالغبار ، وتضاحك الصبيان .

قالت العجوز ، أنها تعبت مع (صالحة بنت أحمد) ، فرأسها قاسية ، ولكن الزمان سيعض عليها ، وتعرف أين خلاصها، وأمّلته بأنها لم تذبح الأمل بعد ، وإن لم تكن في نيتها صادقة.. غير أن رغبتها في استحلاب ما يمكن من ريالات (عامر) ، خولتها لتعليقه ، فرك فمه بالسواك ، أفنى فرشاته الرطبة تحت براطمه ، واسترجع مع (فاطمة) العجوز أملا جديدا .

كانت (فاطمة) تحدثه عن تفاصيل زيارتها ، وتقطع كل تفصيلة لتقول :

(خلها .. بكرة ، تقول يا ليت) ، فتكرر منها ، بل أن مثل هذه العبارة ..كانت أكثر مما جاءت به من وصف لذهابها،

وكانت تحابس ضحكا مسخرا في داخلها ، وتأوي إلى إشفاق على أمل لن يأتي إلى (عامر) الذي يحلم بالأرض والحلال ، وبالزوجة الذليلة المطيعة .

* * *

اتخذ (عامر) سبيلا إلى (صالحة بنت أحمد) جديدا ، (فما لهذه العوجاء ..لا تقبل بصالح غني مثلك يا عامر ؟ وكل الأرامل و الصبايا يرجين قربك .. لكن دواؤها في يدك ، بالمال يا ابن أبيك.. تشتري ما يشتهيه خاطرك) .

التقى بصاحبه الفقيه ، و(أبت الدراهم ، إلا أن ترفع أعناقها)، وقال يا فقيه الخير .. كلك خير ، وأنت الخير .. قل لتلك المحمومة، تبيع بقرها ، الدنيا مجدبة ، وماء السماء يبطئ ولا يؤمن وعده ، غدا تبحث لها في الوادي عن لقمة خضراء تضعها في فمها.. فلا تجد .. تقول وقتها ليتني بعتها .

رأى الفقيه فيما يرى (عامر) الحق والصواب .. مثلما يرى (عامر) دوما رأي الفقيه .

اخترط الريالات من يد (عامر) ، وفي الساعة وضعـــها قـــدام (صالحة) ، وزاد على القول، إغراء بالبيع فالقيمة أكبر مما تســـتحقه البقرة ، وهو سيذبحها ويبيع لحمها على الجماعة.

أبت (صالحة) ، قالت ما ظننتك يا فقيهنا تتـــاجر في اللحـــوم الحلال ، ومتى علمتني أنوي بيع بقرتي ، وعمود خير عيالي ؟! .

قال الفقيه ، أن بيته معاد ومزار ، للضيوف من خارج القريـــة، وأقرباؤه كثيرون ، وعياله يحشدون الجلسة .

و لم يكن ينوي كمـــا قـــال ، إذ ذهـــب في اتفاقـــــه مـــع (عامر) قبل المجيء .. أن يكون (واسطة خير) ، يـــأتي بـــالبقرة إلى بيت صاحبه ، ويبلغ القوم ، أنه عدل عن ذبحها وبيع لحمها.. فكيف يفعل و(عامر) اشتراها منه بمكسب لم يقض فيه عناء ولا تعبا ! .

قالت (صالحة) لجارتها ، وهما عائدتان من الوادي ، أنهـــا ردت الفقيه ، وقد جاءها عصر البارحة .. عارضا عليها (ربطة دراهـــم)، مغرية ثمنا لبقرتها وسألتها هازئة :

- (متى ، شفنا فقيهنا .. يتاجر في لحم البقر ؟) .
- (تظنين يا مخلوقة ؟ ، هذا عامر .. أرسله) .
- (قلت لنفسي ما يمكن ، لكني عضيت على لساني و ...سكت) .

ابتلعت الأيام سيرة بقرة ، جاءت ساعة على لسان .

وكانت بقرة (صالحة) تسرح في يد ابنتها إلى مسيال يبعد عن البيت مسافة .. يأتي إليه الناس يسقون حلالهم ، ويغسلون صوف غنمهم وملابسهم ، ولم يكونوا في العادة يحملون منه الماء للشرب والوضوء ، ليست به نجاسة .. غير أن ماء الآبار أضمن طهرا ونقاء .

اقتربت (سعيدة) من المسيال ، أمامها البقرة ، وحاشتها إلى مجرى (الفلج) ، وأطلقت لسانها : (تو وو . تو) فامتصت البقرة الماء حتى انتفخ بطنها ، ورفعت رأسها .. ممددة رقبتها كالغصن، فانسال من فمها ، لعاب كخيوط الزجاج ، أدرجت خطوات قوائمها مستديرة إلى الوراء ، و .. بركت على جنبها ، فتحت عينين كبيرتين صافيتين ، وفجت خوارا متقطعا عاليا .. اندفع من مؤخرتها شيء لا يذكر ، انتفضت ، وارتج كل شبر في جسمها.

خافت (سعيدة) أحست طعما كالملح ، وكالدم تحت لسانها، صاحت : (بسم الله ، على بقرتنا) ، لكنها لم تجد أحدا حولها، كانت قدماها لا تحملانها ، وذابت ركبتاها من مفاجأة لأول مرة، نبض قلبها كما ينبض الطبل تحت اليد القارعة ، وقعدت قرب الماء على صخرة طويلة ، كصرة من قماش أسود .. صغيرة مضطرة .. رفعت كفيها أمام وجهها ، ودعت الله : (يا رب أنا ضعيفة،

وبقرتنا مسكينة) ، وفكرت لو تجري إلى البيت ، تعلم أمها ، لكنها رأت أنها لا تقوى ، وأن البيت بعيد ، بعيد ، أبعد مما هو عليه ، فرفعت صوتها بأكبر من حجم فمها : (يا آ آ آمه..) مرات ، وكانت تدرك باليقين ، أن أمها لن تسمعها ، لكنها، وبدون أدنى مزيد من التردد .. صاحت ، فكل سامع يسمع فيجيب .

كان في واجهة البصر ، وعلى سفح الجبل الذي يردد صدى الصوت ، صبيتان ترعيان قطيعا متناثرا وقليلا من الغنم ، جاءتا مهرولتان إلى المسقى .. أطلتا من على (حجيرة) فوق الماء ، ورأتا (سعيدة) قاعدة تتلفت في كل اتجاهات وتبكي .

وكانت البقرة تنتفض ، وتنافح بقوائمها في الوحل .. تمد لسانها ، وتموج بعينيها الواسعتين ، و.. تخور .

خافت الصبيتان .. وقالت واحدة لرفيقتها ، أن بطنها يؤلمها، انطلقتا إلى القرية .. جرى رجل بسكين كبيرة ، وجرى خلفه نساء قليلات ، وصبيان كثيرون إلى المسقى .

سمعت (صالحة) فزعة الناس ، فخرجت حافية ، وخافت على ابنتها .. أكثر مما خافت على رضيعها ، الذي تركته معلقا في مهده مع الفراغ والصمت ، والباب المفتوح ، والنار الحية في المشب .

دنا الرجل من رقبة البقرة ، وقال (بسم الله ، والله أكبر) فاندفع الدم كالساقية من رقبتها ، واندفع الماء مالحا ومتسابقا مـــن عيـــني (سعيدة) رفعت يديها في الهواء ، وهزهما هزات سريعة ، وصـــاحت بالبكاء .

وعنـــدما وصـــلت أمهـــا الحافيـــــة .. احتضنتـــها ورددت كثيرا من (عليك اسم الله .. يا بنتي) .

كانت (صالحة) تعلم أنه لا بديل لرقبة بقرهـــا في مثـــل هـــذه الحـــال ، سوى السكين . . بل أنها كانت تخـــاف ، أ لا يدركـــها فلان بالســـكين قبل موها .. لكنه لحقها حية ، يحل لحمها للآكلين.

قالت ، لحمها .. صدقة لكل بيوت القرية ، كل بيـــت يـــأخذ (ساديا) بالتساوي ، وبطيب خـــاطر قـــالت ، حـــلال عليـــهم، واستخلفت الله فيها خير ..عادت بنصيب من لحم ، لا يزيد عـــن أي نصيب في الجماعة .

- قال لسان الناس :
- (الحبل ، ينقطع من المكان الضعيف) .
- و ..

- (لو باعتها للفقيه ..لكان سلم) .

- و ..

- (يا خلق الله .. كيف ماتت ؟!) .

قال الفقيه مبتسما : (اسمعوا يا جماعة .. والله ، عرضت عليها تبيعها بثمن ما يخطر على بالها ، وأبت) .

أما (عامر) فكان يقضي قيلولته في القرية المجاورة ، عند بنته (عزة) وزوجها.

مر فلان .. ألقى شيئا في الماء .. قال يجئ في بقرة (صالحة) أو يجئ فيها وفي كل ماشية تسبقها هذا الظهر بعد مغادرتي .

كان قبل مورد الناس بحلالهم لساقيته ، قد سرح إلى مزرعة له قرب المسيال .. تعج خضرة بذرة الخريف في أول طلعه من الأرض لو أكلت منه كل ذى معدة مجترة.. تموت بعده بقليل ، قليلا ما يلحق الفازع بالسكين ، تلك الآكلة حية .

لم تر (سعيدة) زرع الذرة الأخضر في الماء ، وإلا لكانت رمته بعيدا عن مشرب البقرة ، وكل حلال الناس ..كما يعرف الصغير والكبير هذا موسم ينبت فيه بذرة الذرة ، وتموت مواشي للخلق في الوديان ، وتلك التي يهملها أهلها .. تتعدى على المزارع، تحب أكله لطعمه ونضارته ولين مضغه .

وعلى أي جانب ماتت ..

فها هي بقرة فلانة المحمومة تموت تلك التي (حثـــت الـــتراب) في وجهك يا (عامر) مرارا ، وأبت منك ، كأنما يعيبك عائب ، يا خير الرجال ، وأتقاهم ، و أصلحهم في عـــين النـــاس ، يشـــهد لـــك بـــالصلاح والخير كل قاص ودان ، زهد في الأطمـــاع ، حـــتى في هداياك .. طيـــب ، تأتى بـــ (مساويك) من كل سفرة للحـــج ، حتى تمنح الزائر القريب والبعيد ، من يظن فيك ظن السوء .. عليـــه دائرة السوء ، وها أنت يا (صالحة بنت أحمد) تصفقـــين الكـــف بالكف ، وتعضين شفتيك بحـــد السن ، وتولولين مع كل دقة خافتة من قلبك ، على بقرتك التي أبيت بيعها ..

هيا الآن كلي من الندم نفسك ، قولي : أين يوم جاءني راغبا بالزواج — فيه (عامر) ؟.

* * *

ذهب (عامر) إلى ما ذهب إليه من فوح الخاطر ، وقاس الأمـــور بموازين خاسرة ، وظن أن صالحا تقيا في عين الناس لا تعرى فعلتـــه لا بد أن تخفي خطوته نواياه ، واليوم ..

هاهو الفقيه ، يقصر من قعدته معه ، ويخـــف خطواتـــه إليـــه، وفتـــح باب داره لـــه في النهار.. فالناس يقولون ،والقول الجـــارح

بالذم .. يجعل الفقيه يخلل بأصابعه لحيته ، ويعرض أمانته في المســـجد والبيت و(المسراح والمراح) لكلام يتقيه كل ذى تقوى .

لم يغب عن الناس ، في الموسم الخريفي ، معرفة ســـبب فـــاتك بالحلال ، لا تؤمن له آمنة إذا ما طاحت بالأكل فيه ماشية .

غير أن وضع الإصبع على الفاعل ، أمر لا يجوز القذف به لمجـــرد الشبهات . كـــان الناس في الأيام القريبـــة الأولى.. يخوضـــون في مقاعدهم عن الفاعل ، ويوجسون فلانا ، وفلانة .. بل كل ذى شأن مختلف مع (صالحة) .

ذهـــب ذاهبـــون مذهبـــا يدنـــو من معـــرفة الفـــاعـــــل، ورأوا في مـــذهبـــهم ، أن بنت (صالحة) ، الصبية الخائفـــة .. لم تقابل على الماء وارد ، فتخبر من يسألها .. فيقول القائلـــون ، لعـــل له في الفعلة يدا .

وما لبث قلب الإنسان أن ينسى مع الليـــل والنـــهار حـــدة الحادثـــة، وغاب في انشغال الحياة ، والركض من البيت إلى الوادي.

ولكنهم كانوا ينامون ، وفي ألسنتهم سؤال ، فلو كانت الميتـــة التي تحشرها حشرة أعواد خضراء ، لا تكاد تملأ القبضـــة الصغـــيرة، من براعم الذرة النابتة .. لو أنها غنمة من قطيع ، أو فالتة من رباطـــها أمام العين .. لآمنوا وصدقوا.

أما ، وأن بقرة تملأ العين ، تجري كالبلحة الناضجة ، أمـــام وارد ماء ..جاء يسقيها ، فترى البقرة أعوادا خضراء تترقرق مـــع المـــاء، وتبلعها .. فذاك أمر لا ريب مدبر .

ظنت (صالحة) في سر الخاطر ظنا .

قالت لعله هو ، أكثرت في كل مرة .. ســـؤال (ســـعيدة) إن كانت رأت أحدا قبل ورودها إلى الماء ، أو لمحـــــت أحـــدا قـــرب مزرعته.. فاستيقنت منها .. أنها (ما شافت حد) !

كرهت أن يفيض لسانها بقول (لا ناقة لفلان منه ولا جمـــل)، امتنعت هواجسها ، بأن ساعة تأتي .. يبين فيها (الخيـــط الأبيـــض مـــن الخيط الأسود) .

وتكرر الأخذ والعطاء في القول ، بين (صالحة بنت أحمـــــد) و بين جارتها ، إذ زاد بالإصرار قولها ، حول الفقيه و (عـــامر) تختـــم قولـــها: (لو سكت يا مخلوقة .. ضاع حقك ، الله رشدك) .

تزورها على الغالب في الأضاحي ، ومعها إبريق معدني بغطـــاء، تملأه باللبن ، وتسد عنقه بأوراق الريحان .. تقول :

- (اليوم .. مخضت حليب بقرتي ، قلت .. آخذ لك منه).

فترد (صالحة بنت أحمد) :

- (الله يبارك لكم ..ما قصرتي يا أختي) .

لم تشرق شمس يوم وتغرب ، فلا تنال من جارتها شيئا من خـــير بقرتها .. بل أنه عندما ولدت ، وأنقطع لأيام معدودة لبنها .. جاءت ومعها إناء به نصيب من (اللباء) .

* * *

بقيت (صالحة بنت أحمد) ، معها من الحلال حمـــارة رماديـــة، وفي البيت حيوان أليف ، يبات أغلب الليالي خارج الـــدار ، تشـــبه فروته في خطوتها ولونها فروة النمرة الرقطاء ، ما لبثت مع هيجـــان القطط ، أن التقطت ملء بطنها .. ستلدهم في أيام قريبـــة قادمـــة، وتنقلهم فردا فردا بفمها ، من مكان إلى آخر ، وكما يقولـــون : (في سبعة أماكن) ، إلى أن تنفتح عيونهم ويغدون قادرين علـــى كســـب طعامهم .

وان خرجت منهم (بسة) بعد انهمار ظلام أول الليل . فستكون طعاما للخاطفات من اليوم.. (فلتذهب إلى مصيبة تقلعها . ما أكـــثر الله إلا تناسل القطط) .

وأما الدجاج ، فذهبت به حاجة الأيام .. باعته واحـــدة أثـــر أخرى ، إلى المدرس الأجنبي ، الذي يعمـــل في المدرســـة – بأثمـــان قبضتها نقدا ، وبقى ديكان جاءت على رقبتيهما السكين ، بعـــد أن

أديا واجبهما في الآذان ، لآخر أسحار رمضان ، وكان هذا منذ أعوام ثلاثة مضت .

وبقي تحت رعاية اليد والعين ، خلف قفا البيت من الواجهة الغربية .. صفائح (تنك) داكنة الحمرة من أثر الصدأ ، الذي تراكم مع الماء والمطر .. معبأة إلى حلوقها بنبات (الريحان) ، و(البعيثران) و(الشيح) ، تعبت عليه (صالحة) بالسقاية والسماد ، حتى تبرعم وتكاثر .

وأما ..

الوادي وبعض المربعات في سفوح الجبال .. فلـ (صالحة) مثلما للآخرين فيها، مزارع تقاس بالزمن الذي يقضي في حدها .. فيقولون (محراث يوم) وما لأحد في الغالب ، زيادة على الآخر في هذه المساحة .

وقتما يحين موسم البذر ..يستعير ، أو يستأجر من لم يجد السانية.. للحرث وكل ما يحتاجه صاحب الأرض ، من حاجة إلى الثيران ، وكذا كانت تفعل (صالحة) .

وأما ..

إذا دارت دائرة في النائبات على البيوت .. وجب على الأرملة فلانة .. حسبما يجب على أي بيت في القرية ، وما عرف عنها ذات

واجب أنها ناقصة ، بل تبذل الواجب أفضل مما يدفعه بعض الرجـــال (صعيى الحق) .

وعلى أي وجه للنائبة .. فان الأمور تـــوزن بمـيزان (البيـــت والوادي) ففي البيت .. الحلال ومرتكز المؤونة ، وفي الوادي أراضي الزرع والحصاد.

وذلك ميزان تقعد (صالحة) في كفتيه ، مثلما يقعد أي موزون .

لا يميز بيوت الآخرين عن بيتها .. سوى أنها (حرمة) في عـــين الرجال وللرجال في صنوف الأمور مكان ليـــس مـــن معروفـــهم مشاركتها فيه ، فإن كان الحال لأمر ما .. يوجـــب حضورهـــا في مجتمعهم ، يكون في مجلس داخل أحد البيوت .

والحالة التي ساقت قدميها اليوم ، إلى بيت الفقيه ، وبعـــد مـــا قضى الناس خلفـــه صلاة الجمعة ، وملأ آذانهم بالخطبة والدعـــاء، وذكرهم بتقوى الله ، وإيتاء ذي القربى واليتامى وابن الســـبيل .. جاء بعضهم إلى بيت فقيههم ، ممن تجمعهم به جامعـــة في الـــرأي، وبعضهم لا تجمعه به ملاقاة في الرأي ، لكن مقام السن وقوة المشورة العادلة . لها في مثل هذه المجالس مكانة الفعل والتنفيذ .

حيثما قعدت (صالحة بنت أحمد) طرفا من مجلس الرجـــــال، في بيت الفقيه ، كانت تلف رأسها وكتفيــها وواجهـــة صدرهـــا، بـــ (شرشف) أبيض خفيف كالرذاذ المنسوج ، تحوف بطرفيه حافـــة مطرزة بالأخضر البارز ، مثلما تلبســـه كـــل نســـاء خلـــق الله في (المسراح والمراح) ، وكانت يداها خاليتين من أيـــة زينـــة ، حـــتى الحنـــاء (ما وقع في كفهـــا .. من يـــوم مـــوت المرحــــوم) .. بل أن أنفهـــا الــــذي تستـــره بطـــرف مـــن لثـامـــــة (الشرشف).. بدا كما لو أن إبـــرة ثقبـــت طـــرفـــه الأيمن علـــى التو .. فقـــد نزعـــت عنـــه (الخزام) منذ أيام باعت فيـــها كـــل الحلي ، كانت قعدتها لا تبعد عن قعدة (التشهد الأخير) ، وقـــالت باللسان الصافي :

يا جماعة الخير .. أنا واحدة منكم ، في كل علـــــم إلى حــــده، وتعرفـــون كـــل اللي وقع .. من موت بقرتي .. إلى اليوم .

وفصلت حادثة النار التي أحرقت مجمع الحطب خلـــف بيتـــها، وأنها لم تكن من غير فاعل ولولا فزعة الناس ، لالتهمت كل البيت، ودعمت صوتها المتصاعد بحركات يديها الحادة ..

تناشدهم فضح الفاعل ، الذي لا يمكن أن يكون مجهولا أمام كــــل القاعدين ، وأمام كل أهل القرية من الصغير والكبير .

استحلفتهم بصلاتهم (في يوم الجمعة الفضيـــل) ، أن يوقفـــوه عنـــد حده ، وكرهت أن تجعل من نفسها ناقصة أو ذليلة .. فعدلت عن ذكر يتمها وموت زوجها ، الذي يعرفه الجالسون في المجلـــس، مثلمـــا يعرفون أيديهم .

قال واحد :

- يا بنت الحلال . لعن الله قوم ضاع الحق بينـــهم .. مـــن تظنـــين الفاعل؟.

- أهل القرية ، من شامها إلى يمنها .. معروفين ، وأنتم ، تـــدرون مـــن هـــو العدو، ومن هو الصديق .

كان الفقيه يضع كفه على قلبه كما يقولون ، ويحـــاذر لســـانا يفضح بالقول فعلة فاعل ، لا يخفى على أحد ، فعـــل ريالاتـــه، وضغينة صدره على (صالحة) . وهذا مجلس جمـــع علـــى بســـاطه شخوصا لا يخشون في الحق لومة لائم .. قال :

- اسمعي يا حرمة .. على المدعي البينـــة، وعلـــى المتـــهم اليمين.. قولي هذا فلان، فعـــل كذا ، وهاتي لـــك بمـــن يشهد.

فهمت (صالحة بنت أحمد) أن الفقيه يرغب في تغييب الفـــاعل الذي لا يغيب على أحد .

ومن أين لها بشهود ، وهي التي كانت وقتها في الـــوادي مـــع جارتها ، حين فرغت وهي تسمع بنتها تستغيث بالبكاء ، والنار تفور كالعاصفـــة في حطبها عند جدار البيت ؟! . قالت :

- الشاهد الله ، يا فقيهنا ، والحق يظهره .

قال صوت من القاعدين :

- تقدر يا فقيهـــنـــا .. تحضر شـــاهديـــن يشهـــــدون انك توضيت قبلما تصلي بالجماعـــــة ؟ مـــا ظننـــت أنـــك تقدر .. لكن ، ما أحد يقدر يقول انك صليت من غير وضوء .

قال الفقيه ، ويمينه تدعك شمال يده :

- يعني ، يا فلان .. أن الفاعل معروف ! .

قال قائل ، وكانت الأصوات تتقاطع ، فلا يتضـــح منـــها إلا : غضب الله على الشيطان وحدوا الله ، صلوا على النبي :

- العلم خير يا جماعة .. صالحة بنت أحمد، ما لها غـــريم في القرية ، غير عامر، ودليل خوفه من الفضيحة.. غيابـــه عن مجلسنا، وإذا كان في خاطركم ، شـــخص غيـــره قولـــوا ، فلان .

تخبأ الجميع في صمت مباغت .. لحظتها ، دخل صبي وفي يـــده دلة قهوة تنتفض قليلا ، وتقاطرت دمعات ساخنة ، مـــن عنقـــها الطويل ، في يساره وفي اليمين بناء أبيض من الفناجين .. آخذ يصب في أول الفناجين ، وقدمـــه إلى الفقيـــه ، ثم تقـــدم إلى أول يمـــين المجلـــس، يصب ، ويقدم .. واحدا خلف واحد .

جاء إلى (صالحة بنت أحمد) صب لها فنجانا و.. قعد .

بين صكيك فناجين الصيني ، ورشفات القهوة النفاذة .. اقتحـــم هذا الانشغال الخفيف ، سمع نهيق حمارة في الخارج البعيدة ، وتتـــالى خلفه نهيق آخر .. فآخر ، كرهت الأذن الآدمية في المجلـــس تلـــك الأصوات المنكرة ، فصاح الفقيه : (خذ يا ولد الفنجـــان) . نفـــر الصبي من قعدته ، واسترد ماء أنفه بنشقة قوية ..صب في فنجـــان أبيـــه ، و جاء إلى يمين الجالسين ، ليصـــب للجميـــع ، واكتفـــت (صالحة بنت احمد) بفنجان واحد دلقته من تحت لثامها دون رشف.

دقائق معدودة ، ولم الصبي من أيـــادي الجماعـــة الفنـــاجين، واحـــدا فوق واحد ، واستدار نحو الباب ، إلى باب النساء الـــذي يخرج منـــه الصمت الراكد ، مع دخـــان النـــار والحطـــب الأزرق البطيء .

ضرب واحد بساط الأرض أمامه بـــ (مشعابه) وقال :

- ذا الحين يا جماعة الخير .. ندعي عامر ، ونشوف ويش عنده؟.

رأوا في قولته الصواب .. انطلق ولد الفقيه كالحذفة إلى بيـــت (عامر) .

أجاب ولد الفقيه على أسئلة كالقطيع من (عامر) بـــ (أنا ، ما أدري ..) ، (أنا ما أدري .. أنا مرسول) .

التقط (أبو المساويك) مشعابه ، ودعك بسواكه مرو فمه حـــتى تورمت براطمه ، وخرج خلف الصبي الذي وصل مبلغا الجماعـــــة، قبله بمسافة دخل طرف الساحة ، نضح عاليا بعبـــارات (التـــهليل والتكبير) ، وحمل لسانه بـــ (حوقلات)متكررة كان لا يخفى علـــى القادم إلى بيت الفقيه ، وأذناه تمتلآن بعـــراك الكـــلام ، وعينـــاه تفيضان بالأحـــذيـــة المصفـــوفـــة عنـــد العتبـــة .. أن القاعـــدين في الداخل خلـــق يختصمـــون ، مـــــد (مشـــعابه)

كالذراع المعقوف ، ونطح به قرعتين عميقتين على خشب الباب، خلفهما بـ (أهل البيت ؟! .

جاء صوت الفقيه آذنا مرحبا (أهله الله .. أقلط) .

وخلع نعليه .

وقف مشرعا بالسلام المقتضب ، وجمع بعينيه القاعدين، مدورا عن فسحة بين رجلين يقعد فيها فما وجد .. ولم يفسح له أحد، زحزح الفقيه جسمه الثقيل ، من إشارة بيده . قعد إلى جانبه ولمح في الطرف المقابل ، امرأة ملثمة بلثام محتشم أبيض .. استيقن بعد بصر قصير، أنها غريمته (صالحة بنت أحمد) فشغل يده بفرك سواكه في فمه ، وانتشرت رائحته المعروفة في الأنوف القريبة .

تنحنح الفقيه .. قال وهو يدير وجهه الدائري الغث :

- " يا عامر ، وآنا أخوك .. الجماعة ، أخذوا في الكلام ، قصار وطوال ، وما لقيوا غيرك، الوحيد اللي واقف في الطريق هذي الحرمة .. " .

فتق عما جرى في المجلس ، وما حكته (بنت أحمد)، وما شدد به بعض الجالسين ، من كبار القرية ، في رفع إصبع الاتهام نحوه ، وختم بقوله " هذا علمنا وسلامة الجميع " .

كان (عامر) يجمع كل قوته في بلاعمه ، التي تطلب المزيد مـــن اللعاب المعفر برائحة السواك ، ويدحرج عينيه الغـــائرتين ، كعيـــني مقتنص .. من أول رجل يجلس عن يمينه ، إلى مجلس (صالحة بنـــت احمد) ، وينظر برأس لا تتحرك ، وختام كلام الفقيه .. أعفى السواك عن فمه ، وقال :

(سلمت)

كما قالهـــا الجميـــع بلســـان واحـــد ، وطـــاح صمـــت كاللحظـــة .. ينتظـــر رد (عامر) ، غير أن ديكا ..دخـــل كأنمـــا يطـــير خلف دجاجة هاربة من الساحة ، فكانت تحشر فرعـــها في أول ركـــن بالمجلس ، وتبلغ صياحها ، ويجري خلفـــها الديـــك، ويقأقيء منتصبا ، تتجه نافرة إلى الباب وتبصم بصمـــة كريهـــة لا تذكر، أمام كل العيون التي تحاشتها .. ثم يحلق بها ، فتختنع راضيـــة، يعتليها في ثوان ، يؤذن مصفقا ، ويمنح رجليه الباب متثـــاقلا غانمـــا منتصرا ، وتتبعه الدجاجة.

صاح الفقيه بهما : (برا .. برا) .

كان (عامر) يعمر قولا على لسانه ، يرد به علـــى قـــول الفقيـــه، وكـــان يدرك .. كما كـــل القـــاعـــديـــن ، أن الأمـــر في

هـــذا المجـــلس ، لن يذهب مذهـــب الريح ، وأنه لابـــــــد مـــن (وضع الجنبية في نصابها) ، وكما يقول المثل :(قومي يـــا جمـــيرة، و ا لا ..).

والآن .. أما أن يبرئ نفسه ، وأما أن يضرب صدره ، ويقـــول (فعلت ، وفعلت ، وعفى الله عمـــا سلف) ، أو يبتلى أحـــدا مـــن أهـــل القـــريـــة.. يتطاول طامعا منتقمـــا مـــــن (بنـــت أحمـــد) وحقها.. قال :

- (والله يا جماعة .. أني أشوفكم ، مثل أصابع اليد في ســلة الجنبية ، كأن صالحة بنت أحمد .. تقودكم ، قود الشـعرة من العجينة ، وكما لو أنكم ، نسيتم أخوكم الصالح عامر

وعدد معاريفه على فلان ، وفلان ، وكم مـــرة قـــرض فلانـــا قرضـــة حسنة من المال ، سلفا بلا ربح .

قال واحد ، (عامر) لم ينسه بالذكر :

- (اسمع يا عامر .. هذا مجلس حق ، ما فيـــــه كبـــير ولا صغير ، ولا حرمة ولا رجـــــال .. إن كـــان فعـــــلت خـــير، يبقى لك ، وان كان فعلت شر .. يبقى عليك) .

- (أقول لكم ؟ عند هذي الحرمة شهود ؟) .

- (بنت أحمد ، ما عندها شهود .. لكن ليلة العيد باينـــة مـن عصاريها) .

قال الفقيه :

- (يا عامر ، ما أخطأ ، قال الحق) .

كانت (صالحة بنـــت أحمـــد) تنـــثر بصرهـــا في الجالســـين، و تتحاشى كلاما تود لو فضته من لسانها ، عن أمور ربما لا يـــدري عنها الجالسون من مراسلته الأولى ، ودفعه للعجـــوز (فاطمـــة).. ثم حادثة البقرة التي لم يندمل جرحها بعد .. وكانت تود لو أعلنـــت في هذا المجلس ، أن (عامر) رجل يتصيد ضعف الناس ، وقلة حيلتـــهم، ليشتري أمانتهم ، ومزارعهم وحلالهم ، وأنها ليســـت بضعيفـــة، وليست بتلك النعجة وأن أرضا ورثتـــها وعيالهـــا مـــن المرحـــوم، وعيشت من قبلها أجيالا ، لا تعرف نهايتهم .. لن تضيع منها شبرا .

لكنها آثرت حبس اللسان ، إلى أن يوجه إليها الكلام ، بطلـــب من الحاضرين .

قال الرجل الكبير ، الذي كان واقفا بـــالحق ، كالشـــوكة في حلـــق الفقيه :

- (أنا ، أقول، انك يا عامر، من أول الأيـــام ..تجـــري طمعان ، وراء صالحة بنت احمد، ما أنـــت براغـــب في

زواجها من أجل الســـتر .. لكنـــك تطمـــع في البيـــت والوادي، والحلال ، يعني .. أنت اللي سممت بقرتـــــها، وحرقت حطبها ، ويمكن في خـــاطرك بتفعـــــل مـــا لا يعلمـــه إلا الله).

كان أغلب الحاضرين ينتفون من قول صاحبهم ، وكأنه مـــــن لسانهم وكذلك كانت (صالحة بنت أحمد) ، أما الفقيه ، فذهب يخلل بأصابعه لحيته السمينة ، ويغمض عينيه ، ويبرطم بكلام لا يسمع .

قال واحد .. بعد صمت قصير من الجميع :

- (الحاصل .. ؟)

- (الحاصل .. أن عامر يمتص مسواكه، ويكون مثل الرجال .. يعـــترف وإلا فإن الحق يركبه) .

قال الفقيه : (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

قال عامر (تبغون يا جماعة .. أحلف لكم ؟) .

- (يمينك ، يا عامر ما تقبل .. لأننا ما نصدقك ، وصالحـــــة .. تبغـــي حقها ، وقدامنا ، تقول على نفسك .. انك تبتعد عـــن طريقـــها بعـــد اليوم) .

كان يعلم أنه إذا لم يخضع لحكم الجماعـــة .. فإنـــه ســـينبذ، وسيقاطع في كـــل الملمات ، التي لا يمكـــن لأي فـــرد في القريـــة، الاستغناء عن اليد الكاملة للجميع في (الطيب والبطال) .

قال :

- (طيب ، يا جماعة .. قولوا لها تتزوجني).

قالت (صالحة بنت أحمد) :

- (قدامكم يا جماعة .. أنا ما أتزوج بعد موت المرحوم).

وأضافت بصوت خافت (الله .. يصيح عليك) .

قالوا بلسان متفق :

- (ها .. سمعت جوابها من رأسها) .

كان يبدو واضحا للجميع ــ أن طلبه للزواج منها .. يعني أنـــه لم يرد الاعتراف عيانا ، بأفعاله التي لم يستطيع تجريدها من نفسه .

طلب الفقيه مهلـــة إلى الجمعـــة الآتيـــة .. يجتمعـــــون، ويقدمون الحق مثمنا كاملا من جيب (عامر) .. إلى (صالحة) .

دخل ولد الفقيه، بصحن بين يديه ،تقزقز من مساحته فنـــاجين الشاي الزجاجية، يوازيها إبريق أخضر مدهون ..يـــترع بالشـــاي ،

وقعد يسكب في الفناجين ..خيوطا حمراء خفيفة .. ساخنة ، تحوم في رؤسها ، حلقات البخار المتثائبة .

كان القاعدون ، يتولهون لشرب الشاي ، ويمططون أعصـــــابهم الحادة .

-٣-

دبت سيارة حمراء ناصعة ، بصندوق خشب مزخرف فـارغ .. في الطريق الملتوي عبر الجبل حيث تهجع على سـفحه ، بيـوت متجاورة من الحجر كان هديرها يصل كـل مسـمع في الهـدوء القـروي الذي يفضح كل نابت صـوت .. تلفتت العيـون إلى الطريق، تمر شهور ، لا تطأها عجلة سيارة .

جرى الأولاد خلفها ، وتعلق بعضهم بمؤخرة صندوقها .كـانت تهز مشيتها على الحجارة،
والحفر الواطئة من أثر السيول .. فتزقزق مفاصلها ، وتنفخ بعقـال رجل متوسط السن ، بثياب نظيفة مكوية ، وعصا صفـراء طويلـة مـن الخيزران .. يركب إلى جانب السائق الأسمـر ، ذى العينـين النافرتين والوجه الأمرد .

كان الرجل ذو العقال المبتسم .. يضع كفه على رأسه ، مخافـة أن يقفز العقال ، ويقبض بالأخرى عقفة العصـا ، وكـان يتطلـع بعينين فارغتين من خـلال الزجـاج ، إلى البيـوت ، والنـاس ، والحـلال، ودهشة الأطفال .

وحين هدأت كركرة السيارة ، قرب بيت الفقيه.. تحلق أطفال من الجنسين ، حفاة .. تشدهم هذه النادرة ، وتجذبهم رائحة بترينها الخارقة .

عندما أخرج الرجل جسمه من الباب .. فاحت منه رائحة عطر غريب .. انحنى وعيناه تحويان لمة الأطفال ، سل يده من جيبه، ونثر على رؤوسهم قبضة مضغوطة من الحلوى الملونة .. تدافع الأطفال ، وشد بعضهم بعضا ، فمنهم من نال واحدة ومنهم من لم يصب شيئا.

وقف الرجل ذو العصا الخيزران ، والثياب النظيفة ، كالعمود المدهون .. يتفرج ويضحك .

كانت (سعيدة) تقف مع صبيتين في نمر عمرها ، على مسافة خطوتين من هذا الفريق المتفائل .. يداها تلتويان حاملة أخاها المفطوم على التو .

تطلعن إلى السيارة التي يوطوط حولها ، ذلك السائق الأسمر .. ترتج أبوابها وزجاجها ، من بعيد ، وكأن قلقا مدهشا أحدثته اللمة.. لم يكن .

قالت واحدة :

- (تعالي ، عند الرجال .. يهب لنا حلاوى) .

- (لا .. عيب ، هذا غريب) .

شد الرجل عقاله ، وهذب عمامته ، ومضى بخطوات ثقيلـــــة إلى بيت الفقيه ، الذي قابله مهللا ومرحبا في الساحة .

بعد وقت .. انطلق ولد الفقيه ، كالدجاجــــة الهاربـــة إلى دار (عامر) :

- (يا عم عامر .. أبي يدعيك) .

- (خير ، يا ولدي ..) .

- (.. ما أدري) ..

- (طيب .. عندكم ، ناس ؟) .

- (أنا ، ما أدري .. أنا مرسول) .

واستنشق قطرا لزجا إلى داخل أنفه .. اســـــتدار عـــائدا .. في الطريق الترابي الملتوي بين البيوت .. صادف صبيانا قرب الســـــيارة، فنهرهم :

(والله ، أقول ، لراعي السيارة) فقذفه صـــبي بعلبـــة (صلصـــة) فارغة، نظره بغيض دفين.. و هرول بأسرع من قوة ساقيه .

وقف الرجل وسائق السيارة محيين (عامر) .. قال الفقيه :

- (الساعة المباركة) .

ودخل من باب النساء .. عاد وبين يديه صحن كبير مدهـــون، تتوسطه طاسة تكاد تفيض من حوافها بالسمن الساخن ، وكومتـــان متوازيتان من التمر الملزق بالدبس .

اقترب الجميع .. كان الفقيه يشترخ تمـــرة خلـــف أخـــرى .. يغمسها في السمن ، ويقدمها إلى ضيفه : (والله العظيـــم .. تـــأخذ مـــن ايدي ، هذي) ، أما (عامر) والسائق ، فكانا يأكلان دونمـــا خجل، ويجمعان جانب الصحن ، نوى التمر الأحمر وحـــين يضـــع أحدهمـــا التمـــرة المبتــــلـــة بالسمـــن في فمــــه.. يسمـــع لبراطمهمـــا مصيصا ، و كانت براطم (عامر) المدهوكة .. تبرق في الضوء .

اكتفى الضيوف ..قالوا وهم يمســـحون رؤوس أصابعـــهم في أيديهم :

(كثر الله خيرك ..يا فقيه) .

. . .

(ابن رابح) ، إن كانت تسمع القرية المنسية كـــالحمل خلـــف القطيع .. فان اسمه مكتوب على كل كيلة حبوب ، وكل محـــاصيل المزارعين في قرى القبائل البعيدة ، المفيد المستفيد ، يشتري ممن يرغب في بيع محصوله ، أو لا يرغب .. فمن لا يرغـــب في بيـــع حبوبـــه،

فيبيـــع أمام بيع الآخرين ، الذين تخرفـــش الريـــالات الجديـــدة في أيديهم، يأخذون بها ما يشتهون ، فلان يبيع محصوله ، وفلان يبيـــع حتى مخزون الموسم الآتي من البذور.

وإذا جاء الموسم ، وطلبت الأرض الراوية بماء السماء ، بذورا .. تغدو كل حبة تبذر ، سنبلة ، ويغدو الحصـــاد .. يجـــئ النـــاس إلى (ابن رابح) خذ بعض الريالات ، ونعطيك بعد الحصاد البعض ممـــا تبقى حبوبا .. عاما بعد عام في سجل الدائنين .. عند فلان ، وعنـــد فلان ، وعند فلانة .

انظروا .. عند فلان راديو جديد ، وأواني لماعـــة جـــديدة، وسجاد صوف بوبر منقوش ملون ، ومفارش من الإسفنج ، وأشـــياء كثيرة ، من لم يكن ككل الناس ، بقى ناقصا.. بيع يا فلان ، وبيعي يا فلانة .

كان الناس حين راح (عامر) يصحبه (ابـــن رابـــح) ، يمـــر بالبيوت، ويخترط محاصيلهم ، ومـــا اخـــتزنوه للأيـــام الناشـــفة ، يترددون.. غير أنهم ما لبثوا أن تتابعوا في البيع.

بقيت تلك المحمومة المعاندة ، برأسها القاسية ، مع عدد قليـــل مـــن القاسين .. قالوا .. لا نريد أشياء زاهية .. فليقولوا ، وليقسـوا

كالحجارة على أنفسهم ، بنت فلان تقول لصديقتها .. انظري ، هذا القماش اسمه (حبك سباني) ، وهذا اسمه عطر (قلب شادية) ، وهذه ثلاجة تحتفظ بالشاي والقهوة ساخنة طول اليوم .

يقول الولد في المدرسة .. هذه جبنة (أبو ولد) ، وهـــذا قلـــم (باركر) ، وهذا الحذاء من الجلد المصبوغ .

إذا جاء عيال الناس إلى أهاليهم يبكون ، قالوا : (ابشروا يـــا غلال ى)، و عنـــدما بكت (سعيدة) أمام قسوة أمـــها ، قـــالت : (ابشري يا فرحتي .. والله لأرضي عينيك).

لكن عينيها كانت تبكي مرارا ، و لم تر الرضى ، و (صالحة بنت أحمد) ليست مقدودة من الصخر .

أولاد الفقيه ، وفلان ، وفلان .. مسافرون ، يعملون في المـــدن.. يجيئون في كل صيف، ومعهم حوائج في سيارات كالتي جاء بها (ابـــن رابح) ، وأولاد فلان وفلانة ، سافروا آخر الدنيـــا ، يعملـــون في شركة الزيت مع الأمريكان ، حدث يا لسان ! .

حدثت (صالحة) حالها وفكرت .. لـــو أنهـــا تزوجـــت مـــن (عـــامر)، لكنها عدلت .. قالت : لو لم يبق غير (أبو المســـلويك).. غير أنه ينمو مع الأيام ، ويتمكن من كل الأمور ، ها هو يتجول مع

مع (ابن رابح) والفقيه ، ومعهما السائق الكاتب ، حاملا ســـجله وأكياسه من بيت إلى بيت .

قالت لها جارتها : انظري يا أختي .. بدلت تلك (المخاضــــة) الجلد ، كانت تعفن بحليب البقرة وأنا أخضها ، فاشـــتريت هـــذه المعدن ، لا ريحة للحليب ، ولا طعم للجلد المدبوغ .

وحين كانت تجئ إليها في الأضاحي، أو العصاري .. في ســـابق الأيام ، كانت، وكعادة النساء في الزيارات القريبة، تحمل قـــهوتها في الدلة ، فتبرد في الطريق ، وتضيع سخونتها في أيام البرد ، أو الهـــواء المتعاقب عبر الفصول ، و .. اليوم ، تجئ في إبريق اسطواني ملـــون، من الفلين اللدن، يمنع تسرب السخونة ، ويحفظها كمـــا لـــو أنهـــا جهزت على قاب خطوتين .

عرضت عليها زجاجة أنيقة صغيرة ، بداخلـــها مـــاء أصفـــر (كبول المحموم) .. فتحت غطاءها ، وقربتها من أنفها :

(أروحيها .. جيت بها لك ، أحسن مـــن البخـــور .. هـــذا حبشوش .. وعندي من نوع قلب شادية .)

- (الله .. يعطيك العافية ، ما قصرتي) .

وضعته تحت ركبتها ، وصدح بلور الزجاجة بالــبريق في عــين الطفل ، فامتدت إليه يده الصغيرة ، وقبض عليها حتى كاد يعصرها.. وضعها في فمه .

كان طعمها حارقا فجذبها ، وراح يحضرها ويقذف بها ، ويمــد يده مرة أخرى ليلتقطها ، وتشدها (سعيدة) ،فتقربها مــن أنفــها، تستنشق نشقات قوية متلاحقة .. ثم تضغط على غطائها ، وتدســها تحت ركبة أمها قالت (صالحة) لجارتها ، تجاريها :

- (أمحي .. ريحتها ، أحسن من البخور) .
- (.. ايوآه ..) .

كانت تريد أن تذكرها ، يوم استعارت منها (مجمر البخور) مع مثلث من خشب طويل ، توضع عليــه الثيــاب ليشــع بداخلــها البخــور، فنسيت الثوب بعد غسله .. حتى كاد أن يحترق جميعــه تحت دخان البخور النافر من الجمر ، لكن (الله ستر) كما تقــول، وأكلت النار بقعة كالكف ..جاءت بعدها بقطعة قمــاش مشــابهة ورتقتها .. لم تكن واضحة للعين ، لقد كانت (تحت الذراع) .

غير أن الجارة لم يطرأ على خاطرها ، حــادث كــهذا ، ولــو تذكرته فلن تجر لسانها بذكره ، و لم تفرط (صالحة) في ذكره .

بكت (سعيدة) بكاء مدمعا ، وابتلعت غصات مرة ، فكـانت تجهد تدفنها في بلعومها ممتزجة باللعاب ، لكنها تقـف كالخشـبه، وتمسح ذوب عينيها بكفها ، ثم بطرف شيلتها .

تحمل أخاها ..تطوف به في الحجرة الترابية ..مـن الجـدار إلى الجدار.. تهزه على كتفيها ، وعلى صدرها وذراعيها ، لا يرضـى أن يخفض من صوت بكائه ، الذي يكاد يفجـر مسـامعها .. يبكـي ويصيح ، ويقلب رأسه على كتفها ، ويفرك عينيه ، كانت تخـرج بـه إلى عتبة الباب ، فتطل إلى الساحة ، وتعود ، تنظر إلى وجهـه المحتقن كالوردة .. وتبكي .

(يا ربي .. ايش أسوي) ، اسقته في الصباح ملء الرضاعة مـن الحليب الصناعي ، فمنذ شهور ثلاثة يشرب منه ، بعـد أن فطمتـه الأم.

عادت من الوادي يومها ، ومعها نبات مر ، يقطـر بسـائل حليبي.. وضعته على حلمتيها ، فامتنع عن الرضاعة من ثدييها .

نصحوها بالحليب الصناعي ، فكانت تكيل لـه (سعيدة) منـه ملعقتين ، بملعقة بلاستيكية سمنية اللون ، جاءت في العلبة ، وكثيرا ما كانت تعطيه يتلهى بها ، حتى تعد لـه الرضعة، جاءت بهـا ، فلـم يلمسها ، وعاف بكل إعراض ، أن يضع في فمه الرضاعة .

سطحته على ظهره ، أضافت إلى الحليب ملعقة سكر ، خضتـه، ودسته في فمه .. لكنه لم يطبق عليـه .. بقـي يبكـي ويتلـوى، وبقيـت (سعيدة) تجرع بكاءها وتمسح عينيها ، لقد أكل الخـوف قلبها ، ونهشتها الشفقة على أخيها الذي نما بين يديها منذ ولادتـه، بل أنها رعته أكثر مما فعلت أمها.

عندما تقطع بكاء الطفل على هيئة دفعات حادة ، وتقطع مـاء العين من محاجر (سعيدة) ، على هيئة القطر النقـي الطاهـر .. تقطع غياب الأم على هيئة ساعات بطيئة عنيـدة ، مخيفـة قاسـية، ثقيلـة الانتظار في صدر (سعيدة) .

و ...

جاءت (صالحة) ، سمعت صوت طفلـها وهـي تضـع أول خطـوة في الساحة ، دخلت ، قدماها تلتـهما في عتبـة البـاب العريضة، ألقت شيئا ملفوفا عن رأسها ، وعمـدت نحـو الطفـل المستلقي ، جانبا منه كانت الرضاعة .. تنز بقطرات بيضاء طحينيـة، تجمع فوقها قطيع الذباب ، لم يحس ، يبكـي وعينـاه مغمضتـان، وماؤهما يشع ، فيغدو الشيء شيئين ، أو يغدو أشياء مجسمة مـن الأضواء ، وكذا كانت الأشياء تبدو في عيني (سعيدة) ، غير أنهـا

تراها كالنجوم ، أو أشد بريقا ، وكما يقول المثل في مثل هذه الحالات :

(تشوف النجوم وسط الظهيرة) .

بغضب وخوف ، صاحت (سعيدة) في وجه أمها :

- (وين غديتي ؟!) .

- (أبطيت ، عليكم .. الله يقطع نصيبي) .

قالتها وهي تلف ذراعها اليمين على ظهر طفلها ، المضموم إلى صدرها ، أمرتها لتغسل وجهها وتجئ بقليل ، لتمسح به وجه الطفل.. ففعلت بصمت كان الطفل لا يزال يبكي ، ولكن قطرات باردة من الماء ، نقطتها الأم في فمه .. هدأته قليلا ، فراحت تفرغ الحليب المسكر ، في الرضاعة وتصب بدلا عنه الماء ، ثم تلقمه ، وتردد : (بغى يموت من الظمأ ..) .

امتدت يدا (صالحة) إلى الصرة الصغيرة قدامها ، نسجت حركة سريعة من أصابعها.. ففرطتها ، وبانت عجينة حمراء متماسكة من عجوة التمر ، اشترخت حبات قليلة .. قالت لـ (سعيدة) .

- (شوفي ، يا غلتي .. جيت لكم بتمرة).

كادت أن تصرخ (سعيدة) بأمها ثانية ، ألا تتركها وأخاهـا، لكنها أحست بريقها ينهال سهلا من حلقها ، قالت :

- (أقوم ، أركب دلة القهوة) .

* * *

كانت القهوة المبهرة بالجتربيل ، تعشعس في النخـاع ، تغـدو لذيذة محببة مفرحة مع طعم التمر الذي جرى كالبغتـة في البطـن، دست الأم تمرة مبتلة بالقهوة في فم الرضيع .. غفى محدثا صكيكـا رتيبا ، كأنما يرضع شيئا لدنا .

قالت (صالحة) لبنتها المستدفئة بحضورها .

(اسمعي يا بنتي .. يقولون كان في الزمان القديم ، قطة ، نظيفـة وأمينة إذا تركها أهل الدار قرب الطعام ، لا تمد رأسها فيه .. حـتى يقطعون لها منه ، وإذا رأت فأرا أو ثعبانا ، أو عقربـا .. ناوشـته بيدهـا ، إلى أن تقتله .

يوم ، امتلأ بطنها بالذراري ، ولدت ثلاث قطـط صغـيرة .. فاض مواؤهم في الدار كانوا يطلبون طعاما ، وكان الوقت شـحيحا سنتها ، وإذا شح الزمان .. شحت الفئران .

خرجت القطة ، تدور عن الطعام ، فعادت خاليـة ، فكـرت، وفكرت وعادت حتى انشقت حلقتها ، كـان أولادهـا يموجـون

ويتلوون حولها من الجوع ، وحين فاض الإشفاق والألم عليـــــهم .. أكلتهم واحدا واحدا فانكظم بطنها ، .. ماتت !) .

شهقت (سعيدة) شهقة العجب المفاجئ .. وضعت كفها على فمها ، مدت عينين معقودتين ، تلمم جفنيهما مـــن الدهشـــة ، إلى أمـــها ، قالت :

- (طيب ، هذا .. ما هو حرام ؟) .

- (البسة ، ما تعرف الحرام .. تعرف أنهـــا مـــا تقـــدر تشوف أولادها .. يموتون قدامـــها من الـــجوع) .

كان أول الليل يهطل بسواد على مخلفات البياض ، وكان الطفل يهطل بعرق كحبوب الندى الزجاجية ، وينام كل جسمه ما عـــــدا فمه الذي لم يهدأ ، يمتص تلك التمرة متروعة النواة ، منذ وضعتـــها أمه في فمه ، كحلمة الثدي .

والآن . .

هدأ كل شيء ،وخفتت كل النوابض ، أمست صراصير الليل تؤزئـــر خارج الدور، وتجرح السكون الممتد من الأفـــق إلى الأفـــق، وفي سقف السماء النقي ..نجوم متناثرة وديعة، تتهامس في صفاء عـــذب ،وتقطر بضوء وديع ،لا يدركه قلب مثلما يدركـــه ابتـــهاج قلـــب

صغير كالعصفور ، في صدر (سعيدة) ، إذا خرجت مع أمـــها إلى الساحة .. في يدها إبريق الماء ، وفي فمها أقوال التعاويذ التي تعلمتـها دون تدريب ، وقتما تخرج جوارها في الليل .

هجمت صكعات الإناء المعدني القديم ، وفرغت من دعك الحناء به أصابع (صالحة) ، جهزت قماشتين باليتين ناعمتين ، وفـــردت خليطا أخضر كالعجين السائبة في كفي (سعيدة).. راحت تمـــدده بسبابتها ، فيغدو كـــاملا فوق الراحتين والأصابع ، تقبض عليـــه، وتعصبه باللفائف ، إلى أن ينتبه الصبح ، فتحمله ، وتغسله : يكـــون أحمر كدم الغزال ، زاهيا .

طلبت (سعيدة) من أمها هذا الصباح (دهان الرؤوس) ..

- (طيب .. أبشري ، والله .لـــو أبيع ثوبي) .

- (البنات ، يدهن شعرهن ، وأنا مـــا عندي) .

قالت (صالحة بنت أحمد) لجارتها ، أنها ستجيء بكيـــس مـــن حنطة صيف هذا الموسم ، إذا ما جـــاء (ابـــن رابـــح) يجمـــع الـــمحاصيل ، تبيعه مع ما تبيعه من محصولها .. سألتها :

- (ليش ما تبيعينه عليه ، أنتي ؟)

- (لو الرأي ، رأيي .. ما بعته ولا حبة واحدة) .

كانت جارتها بعيدة في فهم حاجات الزمان ، وهي تلك التي أشارت عليها ذات وقت ، ببيع بعض المحصول .. فأبت ، لكنها اليوم جاءت طائعة راغبة ، قالت لها وقتها أنها لا تستطيع أن تعيش بعيدا عن الناس وطريقة حياتهم .

(صحيح أن بعضهم ، وأولهم الفقيه . . لا يحتاجون للزراعة مثل حاجة غيرهم ، فأولاده مسافرون ومتعلمون ، يجيئون بالمال وبالأرزاق ، لكن هذا لم يمنعه من حرث مزارعه وحصدها .

وصحيح أن فلانا وفلانا، ليس لهم أولاد في السفر ، وغيرهم لا يزال أولادهم كالفروخ ، في المدرسة التي تتوسط القرى ، غير أن هناك من هم بلا أولاد ، ولا آباء أحياء أو أزواج ، وكما يقولون (رزق يطردك ، ولا رزق تطرده) فما الذي يحول دون بيع بعض محصولك يا بنت الرجال على مر الأيام ، وأنت تبيعين البرسيم، والمحصول الفائض بعد المؤونة وكيس الذرة ، وتبيعين سمن بقرتك، وكانت أحوالك مع تسرب الأيام ، تمضي مثلما تمضي على خلق الله .

اليوم .. مثلك مثل القريب والبعيد ، خذي من تناج أرضك، واقبضي ثمنه ريالات ، تشترين بها ما ترغبين ، لو بقيت تحت انتظار رحمة الآتيات التي لا تأتي لحصد صبرك في الفراغ .

ما بك ؟

لو قطعوا يديك على شبر من أرض زوجك وعيالك ، لرضيت دون بيعها أو رهنها لكنك تأكلين ، وتكسبين المال من خيرها .

سربلت (صالحة بنت أحمد) خواطرها المترادفة ، وهي تؤرجح عينيها عن آخرهما في لفافة مكرشة ، بداخلها جسد طفل تنفضه الحمى ، ولا يدري من أين تشرق شمس النهار ، أو يأتيه حليب العلب المصنع ، فشمس اليوم صبت نورها من فتحة الباب المستطيلة ، ألقت بالضياء داخل البيت ، وتمددت إلى الركن، فغسلت تلك اللفافة ، وكل ما تقع عليه من أشياء قليلة متناثرة .

كان الطفل يرجل في الحمى ، وكانت (سعيدة) التي لم تذق شيئا منذ الفجر، تجر خطواتها متثاقلة بالنوم ، إلى بيت الجارة القريب، أرسلتها أمها ، لتخبرها ، فهي في حاجة إليها ، أكثر من أي وقت مضى .

جاءت الجارة بقهوتها .. قالت (صالحة) ، أنها تخاف على طفلها .. فهو لم ينم البارحة ، فبعد أن غفى ، اطمأنت وانشغلت

بـ (سعيدة) تخضب يديها بالحناء ونامت ، أما هي فبقيت (ولم يدب النوم في عينيها) ، وكان معها بعض الأعشاب العلاجية، ركبتها مع الماء وسقته فلم تسكن في مؤلما.

لا حيلة ، إلا بيد الله ، قالت لها جارتها ، وزادت : خذيه إلى الدكتور :

- (الدكتور ، بعيد عنا) .

- (هبي .. انك تهبطين السوق) .

- كان الطبيب يبعد عن القرية مسافة بعيدة ، تحتاج على ظهر الحمارة ساعات من الصبح إلى الظهيرة ، والطريق البالغة إليه ،هي الطريق الواردة إلى سوق القرى ، لم يكن تعب الطريق ، ولا البعد الذي لن تقطعه على رجليها ، وأمامها حمارتها المحملة بـ (سعيدة) في حجرها أخوها .. لقد كان عناء الذهاب والعودة مرورا بالجبال الصغيرة والكبيرة، وبمجرى النهير القليل في الوادي المرمي بين أحضان الجبال المطلة إلى السوق ، وعناد الظهيرة والخوف

من فزع الحمارة ، لسبب لا يعرفه ربما يحدث ، وعناءات أخـــرى لا

يطرأ ذكرها ..

تقف هينة أمام ما تمد به من أجر لعلاج طفلها في يـــــد الطبيـــب، وقالت لجارتها على نهاية امتداد هذا الحوار بداخلها :

- (أقول يا مخلوقة .. جيتي بثمن كيس حنطة ؟)

- (أبشرك ..) .

عالجت بأصابعها عقدة مضغوطة في ذيل شرشـــفها ، انـــتزعت ريالات معجونة ، ووضعتها في راحة (صالحة بنت أحمد) ، وهــــي تردد :

(قلت لك .. قلت لك ، من زمان) .

لم ترد (صالحة) بكلمة ، عقدت علـــى الريـــالات في ذيــــل (شيلتها) ، وأطبقت على (الشيلة) بغطاء أبيض عريض ، تحتاجــــه في مثل هذه المشاوير .

كان الطفل الملفوف بعناية كغرض ثمين ، يغمغم بصوت ، مــــا يلبث أن يبتلعه ، ويفرك بجسمه المحتقن في اللفافة ، دون أن يغمــــض عينيه .

وكانت (سعيدة) تشده إليها ، خوفا ، لئلا يقع مـــن فـــوق حجرها ، وهز جنبي الحمارة بطرف كعبيها ، تمشي الحمارة مســافة، وتدلي رقبتها تلتقط عشبة (جوج) نابتة ، وتشخر ، كأنـــما تنبـــه الأم .

ربطت (صالحة) حمارتها ، في جذع شجرة (سدر) قريبة مـــن طبابة الطبيب ، ودخلت تحتضن طفلها وخلفها (سعيدة) .

كانت الغرفة الفائحة برائحة عطنه قويـــة ، تلمم على أريكـــة خشبية ترتفع قليلا مرضى ومرافقين ، بعضهم يبتلع ألمه ، وبعضـــهم يفيض به فيعلق صوته بالآذان ، كانت طفلة تنقص في الســـن عـــن (سعيدة) ، تقعد على وركيها ، وتزحف من البـــاب إلى الحـــائط، وتصرخ بصراخ جاف لا ينقطع : (آووه .. أوه) ، تلزم أليتـــها، .. تزحف ، كانت مرافقتها ، ويبدو أنها جدتهـــا ، تحـــاول تســـكينها وتـــردد (الله ، رحيم بعباده .. الله ، بنا وبك) .

جلس شايب ، تقطر لحيته المثلثة بالبياض ، يرتجف ، ويعتمـــد بيده على عنق عكازه ، وإلى جانبه (زنبيل) من خوص الســـعف .. يلتفت إليه ويحوطه بعينين غائرتين صغيرتي ن، فتنظـــر إليـــه بعـــض العيون ، دون أن تصل إلى معرفة ما بـــه . وكان الصـــبي شـــيطاني الحركة ، يذهب ويجيء متخطيا الأقدام ، وبعض القـــاعدين علـــى

الأرض ، يلوك لبانة كبيرة في فمه، ويسجل على جانبي قدميه، فيظهر وهو يمشي كأنما يتهدل ذات اليمين وذات الشمال .

ودعت عجوز معصوبة الرأس ، ومكفنة القدمين بجوربين يختلف لون أحدهما عن الآخر (يا رب) ، تنظر إلى سقف الغرفة الخشبي و تدعو .

انشغلت (سعيدة) بالحملقة في صورة ممدة على الجدار ، عليها تصاوير لأحشاء آدمية ملونة ، تقترب منها وتلمسها بسبابتها، تبدو وكأنها مجسمة.

وهدأ قلب (صالحة) حيث اطمأنت نظرتها إلى الباب الزيتي المواجه، إذ فتح ، وخرج منه رجل حليق بثياب بيضاء تغطيه إلى الكعبين ، فيبدو كالحمام المرسول .لمح القاعدين على الأرض والأريكة ، فرفع بإصبعيه مشيرا إلى الشايب الجالس على الحافة، فالتقط زنبيله ودخل يرتعش .

اشتكت العجوز إلى (صالحة) الجالسة على الأرض :

- (كل مرة ، يعطيني الدكتور شرنقة، يطيب الوجع ، ويعود اليوم الثاني) .

- (وأنتي يا هذي المخلوقة .. ويش عندك؟) .

راحت تحكي لها عن ليلة فاتت عليها البارحة ، لم ينم فيها طفلها ، ولم تنم معه من الصراخ والبكاء ، الذي لم ينقطع من حلقه.

قالت العجوز ، وهي تشير إلى شاكلتها : (أنا ، معي رياح ..

عذبتني في جنبي) .

- (العلاج ، عند الله سبحانه) .

ولحظة أن دخلت (صالحة) بطفلها إلى الطبيب الأجنبي، وصفت له حالة سهرت معها إلى مطلع الشمس ، كان يضع في أذنيه دلدولين كالحبال الجلدية ، ويناقل خرطومها على صدر الطفل وظهره ، وكان الطفل ينهج بالبكاء من الخوف والألم ، تضع (سعيدة) كفها المحناة على فمه وترفعها بحركات سريعة .

كانت (صالحة) لا تزال تصف للطبيب بلسان لا ينقطع، فينظر إلى مساعده ، ويعيد عليه المساعد قولها بلغة فصيحة يفهمها .

(الله ، أنه ما ذاق النوم ، حد البارح) .

(تقول .. ما نامش امبارح) .

قعد الطبيب ، يشخط بقلم سريع على الورق ، وسألها المساعد عن قيمة (الكشفية) ، فحلت شيلتها ، ومدت إليه بأوراق معوجة الأطراف ، دون كلام .

قال الطبيب وهو يلقي بقلمه على سطح طاولته :

(ده .. علاج ثلاث مرات يوميا ، بعد أسبوع .. اطمئن عليه).

خرجت داعية له بطول العمر ، ووجهها يكاد يقطر بالخجل، فقد فرغ الطفل شيئا لا يذكر من عجيزته ، وشاعت منه رائحة.

* * *

سألت (سعيدة) أمها عن تلك المرأة ، التي قابلوها في طريق عودتهم من عند الدكتور ، ومعها ثلاثة أطفال .

أجابت :

- (هذيك ، عزة .. عزة بنت عامر) .

- (الرجال اللي قتل بقرتنا ، و ..) .

قاطعتها أمها :

- (أيوه ..) .

حيث كانت (صالحة بنت أحمد) عائدة من ذات الطريق، كانت الملتهبة في كبد السماء ، تصب ظهيرها على الرؤوس ، تلهب الأفواه بالظمأ ، فكرت وهي تقترب من النهير المتسلل كالذؤابة في الهجير ، أن تملأ جوفها وعيالها منه ، وتسقي حمارها تعب ملء أحشائها ، وعلى مسافة تقاس بـ (الصبر القليل) ، كانت بئر إلى جانب حضن الوادي ، يقف قرنان من الخشب المهذب على رأسها، وعلى فمها نساء ثلاث ، يستقين في قربهن الماء .

عرجت نحوهن ، حيتهن ، طلبت الماء ، كانت تلك المرأة ذات الأطفال الثلاثة ، قد قبلت (صالحة) قبلات خاطفة على جانبي وجهها قرب الآذان ، وحيتها طويلا .. سألتها (من أين، وإلى أين ؟) ، فأخبرتها ، وعن هذه الصبية الصغيرة ما أسمها ؟ ، وما اسم الطفل الموجوع الذي كانت به عند الدكتور ؟

- (أحمد .. اسمه أحمد) .

- (ما شاء الله . باسم جده) .

- (الله ، يرحم أمواتنا وأمواتكم) .

كانت تتحدث إلى (صالحة) ، وتمسح بكفها الممتلئة علـــى رأس (سعيدة) ، كأنما تخفف عنها الحـــرارة ، وكـــان أطفالهـــا الثلاثـــة ، يقفون قرب حمارة بيضاء عالية ، ربطت بعيدا عـــن فـــم البئر، فكـــانت كلما جاء إليها أحد .. تنهره متوعدة بجزيل العقـــاب في البيت .

حط عصفور رمادي بقبعة حمراء ، على نبات مشوك طويـــــل، قرب (قف) البئر ، فحذفه أكبر أطفال (عزة) بحذفة حجر .. نفرته و لم تأت إليه .

جاء الحجر في البئر (بوو م م ..) ، أخاف الطفـــل اخوتـــه، صاحوا مستنجدين بأمهاهم ، و لم تلتفت إليهم ، قطعت حديثها مـــع (صالحة بنت أحمد) ، وزعقت في طفلها : (انقلـــع يـــابو طـــير)، وعادت تواصل مع (أم سعيدة) جرير الكلام .

مضت رفيقتا (عزة) اللتان جاءتا معها إلى البئر ، وانغمســـت بعد التوديع ، وخافت التأخير.. في الطريق الجبليـــة المحفـــورة ، إلى بيوت معدودة الحجر الأبيض ، وقفت إلى طرفيها حصون بعضـــها قصير وبعضها يشهق فوق الباقيات .

وسمع من بعيد خفيف آذان ، يذهب مـــع الهـــواء الخـــامل في الظهيرة ، ويجيء ، فكان يأتي في الأذن كأنما يتقطـــــع في دفعـــات ممدودة .

قالت (صالحة) .. (صدق الله العظيـــم) وقـــالت (عـــزة) (الله أكبر ..) .

تلطفت شمس القرى الجبلية ، بكل الناس والحلال والنبـــات ، إذ كانت نسائم باردة ، تمر مرورا تجـــر أذيالهـــا علـــى (العصيـــف) الأخضر.

افترقتا ، (صالحة) ، و(عزة) ، بعد مسافة و توادعتا دون قبل .

لقد كان سؤال (سعيدة) أمها ، عن تلـــك المـــرأة القصـــيرة البيضاء، والفرحة بلقائها على البئر .. ينساب مـــن غديـــر عشـــب عميق وفائض بالحنين والمحبة ، سألتها عن أشـــياء دقيقـــة في حيـــاة (عزة) وباندهاش أعادت السؤال إن كانت هذه المرأة الودود ، هـــي بنت (عامر) ، ولماذا كان أبوها لا يحب الخير ؟ وكيف هو زوجـــها معها ، ومع أبيها ؟ وأشياء أخرى من هذا القبيل ، تجيبها أمها بقـــول شحيح ، وتضيف : (يخرج الطيب ..) .

* * *

حصد الناس محصول زرعهم ، ولمسوا بالقلب والعـين نتـاج جهدهم ، نمت الأودية بالحياة .. الحياة الكاملة للإنسـان والحـلال والزرع.. بل أن الطيور والنمل ، كانت تحيا مع صـرام الحنطـة، وفوح الصيف الذي توسط فصله المضيء ، وكانت أشـجار قليلـة لأناس متباعدين في القرى ، تأتي أكلـها ، فتـهبط إلى السـوق، تصـدر مع الأهالي المتسوقين إلى أفواه عيالهم ، من العنب والمشـمش والتيـن، والخوخ والرمان .

انشغل القوم بحصاد الحنطة ، وقضوا بعـد أيـام لتسـطيحه في الساحات القريبة من البيوت ، أيام أخر في (الدياس) ، فرز الحـب عن العلف .

وكذا فعلت مع الفاعلين ، (صالحة بنت أحمد) ، فقد غنمـت نصيبا لا يقل عن أي نصيب في القرية ، وعادت إلى قلبها طمأنينـة شديدة وثقة بأرضها ، وقالت لهاجس صدرها : (الآن ، يـا بنـت أحمد ، تقرين عينا ونبضا ، تطردين الخوف وتبيتين على الرضى) .

و . . .

جاء (ابن رابح) بصحبة (عامر) وسائقه الأسمر الطويـل ، درج على عتبات البيوت بسجله وأكياسه ، فاخترط من محاصيل النـاس،

ونبش الدائن المدين ، ونظر (عامر) بالعين القديمة ، إلى يد (صالحة) فرأى الحنطة الحمراء ، ورأى الأرملة العزلاء تناطح بشــــدها مزيـــد الأيام ، فقال : أمر على الدار القديمة بقول جديد ، فأمحو ما مضـى.. لعل غيظا في القلب منها قد محي .

قرع الباب ، ودهك تحت القوارض فرشاة السواك ، بلل المسامع بالتسبيح الطويل ، وقال لساكنة الدار : (عامر) اليوم ، هو ولــــد اليوم ، لا يتوسط بيننا أحد ، رغبتي في قربـــك حيـــة .. فمـــالك يا بنــت الحلال صلبة قاسية كالحجر وأشد قساوة ؟ .

وقفت (بنت احمد) كالشجرة المثمرة ، وقالــــت بـــالصوت الرفيع ، في أذن كل سامع ، لـــو أنه يستحي من الله ، ومن خلقه.. لكان انتهى عن هذا ، وعن الجري كالدلدول وراء ابن رابح وسائقه، يجمع القرش والقرشين ، من حب الناس ، فكيف ترضى اليوم بواحد غلب الطبع فيه التطبع ؟

حينما جاء يوم قريب ، يأخذ النـــاس فيـــه ثمـــن حنطتـــهم، قـــال (ابن رابح) انه لم يجد لها في السجل اسما مذكـــورا ، فمـــتى باعت منه ، ومتى سجل السائق تاريخا اشترى فيه من (صالحة) شيئا مـــن محصولها ؟ .

قال بالفم العريض ، لو أنه اشترى ، لكتب في السجل ، وأنه لا يعرف أهل القرية ودورهم فالقرى كثيرة ، والناس أصعب من أن يعدهم ويتعرف إليهم .. أو لذكره مرافقه (عامر) .

صاحت صالحة ، وشدت من الغيظ شعرها ، وطفرت مكان البغض والضغينة لعدو حياتها (أبو المساويك)، الذي لم تتردد في وضع يدها على الشوكة الحاقدة .

قال الفقيه :

- (يجيء الله بالخير ..خذي من ابن رابح ، على حساب محصول الصيف الجاي) .

- (يا فقيهنا ، أنت تدري أني بعت محصولي ، كما الناس) .

- (لا يعلم الغيب إلا الله ، والسجل .. ما فيه اسمك) .

قالت جارتها ، أنها رأت بعينها سائق (ابن رابح) و (عامر) يحملون من بيت (بنت أحمد) كيسا من الحنطة ، يوم أن كانوا يجمعون المحصول من البيوت .

قال الفقيه : إن شهادة المرأة ناقصة إلى يوم الدين .

قال (عامر) من صدر فيه لوم قديم ، أن الناس يبتلونه بما ليـــس فيه على هذه المحمومة .. فلينظر والآن كيف جاءت ، تقـــول عـــن الناس طعنا في ذممهم ! .

قال ناس لا يخافون من يلومهم ، أن (صالحــــــة) لا يمكـــن أن تصف بالافتراء ، تاجرا مرابيا ، يتصيد محاصيل الناس ، وأن زمانـــــا جرى على حياها وكان الفقيه و (عامر) فيه مواضع الذم والاتفاق .. لابد أن يكون لهما مع المصلحة (الرابحيــــة) مكـــــان الدسيســـة والاقتسام .

والرأي .. ؟؟

وقف ذلك الكبير الذي كان قوله في مجلس الفقيه النفاذ ، وقـــال في مجمع الجمعة بعد الصلاة ، وكان الفقيه منبهتا يحدق بملء عينيه :

- (اسمعوا يا جماعة الخير .. الخســـيس، يبقـــى طـــول عمـــره خسيس ، وكلنا نعرف نفوسنا، بنت أحمد .. نكر حقــــها بعض الناس ، واليوم لازم نشهد عليه ، ونقطع ظهره) .

- (صاحب الحق لازم يأخذ حقه) .

- (ما يتعدى على الحرمة ، إلا واحد ما يخاف الله) .

- (ولا يستحي من نفسه ولا من الله ، ولا من خلقه) .

قال واحد ، قولا يستخلف به فيما راح مـــن الحـــق : (نقـــرأ الراتب عليه) ، وعارض آخـــــر ، فالدعـــاء في المســـجد بلســـان الجماعـــة، بعد الفاتحة والدعاء إلى الله يخليه من بيته أن كـــان فعـــل ما فعـــل ، ويفقره ويخزيه ، لن يعيد لها حقها حبا أو نقودا .

ولكن .. ؟ ؟

نقرأ دعاء (الراتب) ، ونجمع لها ثمن حنطتها التي باعتـــــها و لم تقبضها .

وقال واحد : كيف نجمع ، ونحن نعلم علم اليقـــين مـــن هـــو الفاعل؟ .

وقال آخر : لو أن المشتري كان (عامر) ، لقلنا كلنـــا ..هـــو فاعلها ، لكن (ابن رابح) من غير ديرتنا ، وهو تـــاجر لا يعـــرف سوى السجل ، (فلان عنده كذا ، وفلانة عندها كذا ..)

كان الفقيه صامتا كالصخرة الثقيلة ، وكان (عامر) قـــد ربـــط رفقتـــه بـــ (ابن رابح) وسائقه ، وأخذ لـــه موضعا رخـــوا علـــى

مقعد السيارة ، في كل قرية يغزوها ، فلم يحضر صلاة الجمعـــة مـــع جماعته منذ أول الموسم .

قال الذي تحدث دون ملام في أول الأمر (أنه يـــرى وجـــوب تجميع قيمة تليق بثمن ما أنكره (ابن رابح) وإعطائـــه لفـــلانة، وسألهم .. لو أن هذا النكران حدث لأحدهم ، ألا يجمعـــون لـــه ريالات ، يقطعون بها حاجته بدلا من حرمانه وفقره ؟!

تغلغل في الصدور بنية صادقة ، دعاء يجعل الله به فلانا في حالـــة لا ترضيه ، ولا توفق الحياة خطوته .

ونذروا على أنفسهم ، دون إعلان ، مقاطعة مـــن يشـــذ عـــن الجماعة ، ويخالف رأيهم ، ويغيب عن جمعتهم ، ويغشـــهم جاريـــا خلف مصلحة نفسه .

لم تكن (صالحة بنت احمد) ، تدري عن مشورة الجماعة بعـــد جمعتهم في المسجد ، وحينما استقبلت الرجل الكبير ، وأقعدتـــه إلى جانب مشب النار ، ومعها ابنتها وطفلها : ســـألته عـــن أحـــوال زوجتـــه وعياله ، و أشارت إلى سعيدة بحركة خفيفة مـــن يدهـــا، ففهمتها ، وانحصرت أصابعها الصغيرة ، توضب تراكيب القـــهوة، وتزيد من (حب الهيل) .. حبتين ، تبخر بهما رائحة وطعم القهوة .

داعب بإصبعين عجوزين الطفل ،حك بهما خديـــه النـــاعمين كالمشمشتين ، وهو يقول (بكرة.. تكبر ، وتصير رجال) .

مدت (سعيدة) إليه فنجان القهوة ، فعلقه بين إصبعيه ، وقـــال بفم نبش السين : (سلمتي) فكان يلفظها كالثـــاء ، واحتضنـــت عيناها وجهه الأليف الهرم إذ كان لا ينظر إليها ، بل سرح يلاعـــب الطفل حتى فاضتا .. دفن كفه في جيب كبير داخلي فوق صـــدره، وأخرج ريالات ربطت بمطاط رفيع ، وقدمها إلى (صالحة) قائلا :

- (هذا ، حقك من ابن رابح ..)

- (يعني .. اعترف ، وجابه).

- (لا جمعوه الجماعة) .

- (الله ، يكثر خيرهم ، ويقطع نصيبه ، ونصيب مـــن كان معه) .

أكد على وجوب الشهود في مثل هذه الأمور ، لأنها تتعـــرض لنكران من الناس لا يعرف الحق طريقه إلى رزقهم وذمتهم .

فهمت قصده ومراده ،وحكت له حكاية ما حدث من جديـــد، ثم ذهب لسانها يعج بدعاء قاس وحارق ، ينتقم الله ممـــن ظلمهـــا

و أكل بالكذب والجحدان حقها ، كان آخر ما دخل أذنيـــه وهـــو يحتذي نعاله على عتبة الباب (الله يكفينا فيهم ..) .

* * *

انصبت الشمس من فوق كل عال في الأفق ، وزحفت زحفـــا لا تدركه العين ، إلى فوق الرؤوس ، غفى وقت ما بعـــد الضحـــى خلف فراغ الحصاد .. في كل الوديان والبيوت .

وجاء تراخي الضحى الأخير ، علـــى (صالحة بنـــت أحمـــد) وبنتها ، قاعدتان أمام عتبة الدار ، وبينهما طفل بثوب ربـــط مـــن وسطه ، ورفع ما فوق عجزيه ينـــثر خطـــوات متقاربـــة بقدمـــين لدنتـــين، ويبتهج بسبب وبدونه .

أنفقت (بنت احمد) كل بصرها ، تدعك بين راحتيها خيطـــا رفيعا ، وتبرمه حتى يغدو مستقيما ، وتناولت خرزات حمراء شـــفافة، بحجم حبات النبق ، تنظمها واحدة عقـــب واحـــدة ، مـــن يـــد (ســـعيدة) تفلت منها خرزة ، فحثت بنتها علـــى التقاطـــها علـــى الحين، كيلا يبتلعها الطفل فتذهب بحياته .

أكملت القلادة ، وكانت تبدو كحب الرمان الكبير ، دنت (سعيدة) برقبتها بين يدي أمها ، وعقدت طرفيها عقدة قوية ، ثم قطعت باقي الخيط .

لم تر جارتها منذ أيام ، فلم لا تذهب ومعها عيالها إليها الآن، فكان أن جهزت (سعيدة) دلة القهوة ، ووضعتها في الحافظة الجديدة ، لتبقى ساخنة ، ولما لقيتها تأكل خبزة فالها مع زوجها المريض وأمه الساكنة ، خجلت ، وحلفت أنها منذ الصباح الأول، قد أكلت مع عيالها الفطور مع القهوة ، قعدت ، وقعدت (سعيدة) التي لم تفتح فمها ، وفي حجرها أخوها ، وحين ضربته على كفه وقتما مدها إلى الفناجين فأحدث جلجلة عالية ، رفع بكاءه فشق هدوء كان يحتاجه زوج الجارة ، ودخلت حماتها التي تحمل في رقبتها سلسلة رفيعة في طرفها حلقة بمفتاحين .. إلى (علبة) بباب في الواجهة فجاءت بعدد من التمر الأصفر الجاف، ووضعته في يد الطفل ، فأخذ يأكله ويمتص معها صوته الذي ما لبث أن هدأ .

خفضت (صالحة بنت أحمد) لثامتها ، وابتلعت جرعة ساخنة من القهوة التي جاءت بها ، وصبت لكل القاعدين منها، أخرجت

جارها قطعتي قماش ببقع زهرية كبيرة حمراء وصفراء ، وقالت وهـــي تضعها على ركبة (صالحة) :

- (هذي ، والله إنها من عندي لسعيدة ، وهذه خذيــــها بقيمتها) .

وأشارت بحركة من رأسها وإصبعيها إلى الصفراء .

قالت حماها العجوز :

- (لا.. لا ، الحمراء ، أحسن للكبيرة) .

كانت (سعيدة) تهافت عينيها المحتارتين ، وتمد يدها المحنـــاة إلى هذه وإلى هذه ، فتبين كفها على القماشة الصفراء ، أدركت أمــــها فقالت :

- (الله ، يكسبك الغناة ، هذه لسعيدة) .

كان زوج الجارة يجرجر قدميه ، حاملا مرآة صغيرة وقالبا مـــن الصابون المعطر ، وقعد قرب النافذة البعيدة عن الجالسين ، يركـــب الموسى ويحلق جانبي وجهه الهزيل ، وبعد قليل صاح: (وين المقـــص يا مخلوقة ؟) فقامت زوجته إلى الداخل ، وخرجت بمنشفة بيضـــاء مكرمشة ، ومقص فضي بحجم الكف ، ما لبثت أن ألقمته قطعـــتي القماش ، بعد أن قاستهما على (صالحة) وبنتها .

مثلما يخيط نساء العالمين ثيابهن ، كانت الجارة تـــبرك وقبالتـــها مكينتها اليدوية التي عرفت بها منذ شهور قليلة ، وراحـــــت تـــوزن خيوطها وتوجوج بعجلتها في الآذان .

لمت (سعيدة) فناجينها وحملتها مع وعاء القـــهوة الفـــارغ، بينما مضت أمها على يد الطفل وجذبته مع خطوتها ، واســـتعقبت جيرانها خيرا .

عندما دخلت ساحة البيت ، لمحت فجوة الباب على آخرهـــــا، فخافت ، ولم ترد على خوف بنتها التي صاحت (بيتنا مفتوح !) .

دخلتا يقودهما الفزع ، فوجدتا الحمارة ، واقفة كالمنتظرة قـــرب مشب النار، وقد عبثت بالرماد الدافئ فوق (مشهف) الخـــبزة .. لقد دخلت على رائحتها وهي تنضج بطيئة ، واقتلعتها لتذهـــب إلى بطنها ، وليدور أهل الدار عن عجينة جديدة ، يصنعون منها الغـــذاء متأخرا .

- ٤ -

وقتما جادت بنوئها (ذات الرجع) ، واســـتقبلها أديم (ذات الصدع) ، نفر الناس .. يحرثون ويبذرون (الذرة البيضاء) .

قضت البذور تحت التراب أياما ، وصحت من موتها الصلـــب الجامد ، فغدت الوديان كورقة خضراء كبيرة ، وحان على القــوم أن يحذروا الغفلة عن بهائمهم ، كيلا يأكل من هذا الـــزرع النــابت، فيحشرها حشرة الموت .

أيام قليلة وتطفر البراعم الطرية بالأعواد والورق ، ويشتد قصبـها وتثمر رؤوسها بالعذوق المتدلية .. فيأكل الحلال ، وينقر الطير أرزاقه عند كل عشية وصباح .

بنى الناس قرب مزارعهم أعشاشا من القش والأغصان ، ومددوا على الأطراف حبالا ، علقوا بها كل ما يخيـــف الطــير ، والعلــب الفارغة والخلق البالية ، وأشياء تبعد بقلقلتها مع هبوب الرياح الطــير الذي لا يفتك بحبوب الذرة غيره .

كان الخلق يسرحون عيالهم منذ الفجر الأول ، طيور (الفرفر) تغادر بقوافلها أعالي شجر الطلح المتعشب ، إلى عذوق الذرة ، ولو ترك (الخريف) دون (حماية) فلن يصل فم الإنسان منه شيء .

صنع الأولاد (المراجم) من (القنب) وحبال الصوف التي تكون (قواما) لصناعة الجباب والأكسية ، ونسجوها على أقدامهم، بذراعين طويلتين يجمعهما الحاذف بالحجر ، بين إصبعيه ويقذف بالحذفة بعيدا .

* * *

(هذا الطير ، هروب خواف ، لا تصطاده كيفية الطيور .. الفخاخ الحجرية ، ولا يقدر عليه البنادق في شواهق الشجر) .

كانت المزارع تعيش حياتها بحياة الناس حولها وحمايتهم لها .. فكانت توتيئ نتاجها من الذرة البيضاء وفيرا كاملا .

كانت حقول الذرة المحدودة في كل الوديان ، والتي يمكن إيصال ماء الآبار أو عيون ماء (الكظايم) النادرة إليها – هي التي تنتج ثمرتها الكاملة التامة ، وهي التي تلقى العناية .. فهي

أراضي (مسقوية) أما تلك (العثرية) فمن باقي الرعاية تحصل علـى نصيب قليل ، وماؤها تحت رحمة السماء .. التي تجود في المواسـم أو لا تـجود .

لقد جاءت هذا الموسم ، فجاء القـوم بجدهـم في المـزارع، وكانت (سعيدة) تسرح قبل يقظة الشـمس ، ولا تعـود إلا في العشية ، فالحقل ليس بعيدا عن البيت ، وأمها تعاودهـا مـرات في اليـوم ، وتطل عليها بين وقت ووقت .

إن مقطعا كبيرا من النهار، تكون فيه ماكثـة قـرب الحقـل (تحمي) حبوب الذرة .. لا تغيب فيها عينيها عن أخيـها ، الـذي كـان فيما سبق يغافلها ليأكل التراب ، وكل شيء يضع عليه يده ، أمـا إذا كانت الأم في غير انشغال فإنها تبقيه معها في البيت .

لم يهدأ شوق يرفس بصدر (سعيدة) لاصطياد الطيور ، مثلمـا يفعل الأولاد وسألت أمها :

- (هوه ؟)

- (مين غير هوه) .

لكنها لم تقدر على ابتلاع رد أمها .. بل ذهبت تفكر : هل ستصطاد عصفورا إذا نصبت له الفخ ، مثلما يفعل الأولاد ؟ ، فما الذي يفعلونه ؟

سوف تفعل مثلما رأهم يفعلون .. تحفر قطعة حجر مفرودة كالكف الكبير ، وأعوادا يرتكز عليها الحجر ، ودودة تأخذها من قصبة الذرة ، يراها العصفور فيقتحم الحفيرة ، ويطبق عليه .. وتمسكه كالقلب المرتعش بين أصابعها .

إنهم يصطادون العصافير الجميلة ، ويشوونها كالجراد في النار، يغتالون وداعتها وريشها الملون وعيونها المكحلة .. أما هي فلن تفعل .. سوف تطعمه وتسقيه وتأخذه في حضنها وقتما تنام .

اختلط مزحها بالعجب ، عندما حققت رغبتها الحالمة، ورأت أن العصافير تجئ لأكل الدود ، من الفخاخ التي تقيمها البنات مثل الأولاد ، بقي فخها مفتوحا منذ الصباح إلى أن وقف قربه عصفور أكحل رمادي يملأ الكف .

بقيت تصب عينيها على العصفور في يدهـــا .. تمســح علـــى رأســه ، وتدفع أخاها ، الذي تشبث بذراعها ، محاولا أن يقبـــض عليه قالت برخاوة عنيدة :

- (. . حرام ؟!) .

كانت (صالحة بنت أحمد) ، تخـــاف على بنتها من مخالطـــة الأولاد في الوادي وكانت تدرك مثلما تدرك الأم الحريصـــة علـــى سمعتها بين ألسنة القرية .. أن سعيدة في مشارف البلوغ ، و يجـــب أن تكون العين عليها .

مع أنها تعلم علم اليقين ، بأن (سعيدة) الـــتي تربـــت علـــى يدهـــا، ليست من يذهب وراء كل ناسج كـــــلام مـــن الأولاد، لكنها لا تأمن لأحد ، لا يلبث أن يوزع على الآذان ما هي في غـــنى عنه ، و عن أحاديث الآخرين .

* * *

عبر طريق يظهر ويختفي بين الهضاب ، وأشجار (العـــــرعر) الابرية الداكنة كان رجل يحتزم بـــ (الجنبيـــة) في وســـطه ، فتبـــين

كالسيف القصير المثني ، بثوب ، أبيض كغبار الطحين ، وعمامة تربع فوقـــها عقال ممتلـــئ ، وجهـــــه يتـــلاءم مـــع عينيــــه الملمومتيــــن ، وأنفــــه المنتصــب كالإصبع ، ولحيته المثلـــثة الرماديــــة يـــمشي مشيا ركيكا خلف حمـــارته الغبــــراء، المحمـــلـــــة بـــ (الماطور) لترع الماء ، يوجه الحمارة نحـــو طريـــق فرعي ، يهبط إلى مركز سوق القرى .

دخل طرف السوق ، وقف قرب براميل كبيرة ، يهبط عندهـــا أصحاب السيارات الآتية والمسافرة .

ربط حمارته في عمود طويل شاهق ، وجاء من غرفـــة خشـــبية بـــلا باب ، بصفيحة صغيرة ، وصبها في بطن (المـــاطور) ، وهـــو على ظهر الحمارة ، ثم عاد ، وخرج بصفيحة ثقيلة مـــرة أخـــرى، أهملها من يـــده عند قوائم مركوبته .

أعطى (الماطور) المكتف بالحبل ، نظرة عميقة ، ثم أخرج مـــن جيبه حبلا قصيرا ربط في آخره خشبة مستعرضة كالسبابة ، لفه على عجلة التشغيل ، سحب ، فتحرك الحديد الساكن ، وبث هديـــره في

أذني الحمارة ، التي فزعت مذعورة ، وقطعت رباطها ، ونفرت نحو ساحة السوق .

سقط عن ظهرها (الماطور) ، وتدحرج جانبا وهوى ، صاح الرجل راكضا خلف حمارته ، وراح يحوشها من كل جانب ، فتأبى وتزداد هروبا ، وبعد متابعات قوية من عدد من الناس المتسوقين .. أمسكوا بها وربطوها .

جاءوا إلى الثقيل الملقى عن ظهرها ، وكان قد سكن ، وسال من بطنه كل ما صبه فيه صاحبه من بترين ، حملوه إلى قرب مربط الحمارة .

سأل واحد باندهاش :

- (كيف ، تشغل الماطور.. على ظهر الحمارة ، يا رجال ؟) .

وقف الرجل صاحب الماطور ، يهذب عمامته وعقاله ، ثم ينحني ليصلح حذاءه الذي لم يسلم من الانفصام .

قال أنه رغب في تجريب (الماطور) بعد حقنه بالبترين ، فان كان لا يعمل .. حطه عند فلان في السوق ، الخبير في هذه الأمور، استثقل أن يترله عن ظهر الحمارة ، ويعيده ثانية ، فجربه فوقها .

وأضاف : (هذي حمارة مصفوقة .. الله لا يبارك فيها).

ضحك الذي سأله وقال :

(يا ابن الحلال .. هذا حيوان ، يخاف ، ولا يفهم) .

* * *

في العشية ، تلثمت (صالحة بنت أحمد) بشرشـــفها الأبيـــض، وإلى طرف آخر بيت في الجهة المواتية .. وقفت أمام بـــــاب الـــدار المفتوح ، وصاحت : (يا أهل البيت ..) ، خرجت بعد عد لا يزيد عن العشرة .. امرأة نحيلة على وجهها سمة مـــــن جمـــــال قـــديم، فاستقبلتها مرحبة، ودعتها للدخول .

قالت (بنت أحمد) ، أنها جاءت ترد من زوجها (أبو عطيـــة)، يسرح في الغد إلى البئر الفلانية ، قرب زرعها .. يركب ، مـــاطوره، وأضافت :

- (ذرتي ظامية ، مثلما ، يعطونه الناس .. بأعطيه) .

قعدت مضيفتها تصفف تراكيب القهوة ، قرب المشب ، وتـــرد عليها موضحة ما حدث للماطور، حينما حمله على ظهر الحمـــــارة (الشيطانية) ، ليملأه بالبترين من السوق .

كانت (صالحة بنت أحمد) ، تراقب حركتها الدقيقة ، وهـــي تنقي حبات البن والهيل وفصوص الجتربيل ، تفتح عينيها الخـــابيتين وتكرر: آها . . آها . .).

بعد أن شربت مع (أم عطية وأفاضت عليها كثيرا من كـــثر .. خيرك) ، وأعادت على فمها لثامتها .. احتذت وخرجت .

التفتت إلى يمين الساحة التي تحتضـــن البيـــت ذي الواجهـــة المنخفضة ، بنافذتيه وبابيه ، فـــالتقطت عيناهـــا طفلـــين محلوقـــي الـــرأس، يعبثان تحت قوائم عجلة حمراء ممتلئـــة ، ربطـــت أســـفل الجـــدار . بعد خطوات تنبهت إلى هاوية تهبط من على بناء مرتفع ، يجمع في حفرتها روث الغنم والحلال ، وعلى مد الخطـــوة كـــانت نباتات (العنصل ، والجوج ، الدميا) ، وأعشاب مختلفـــة غمـــرت المساحات المرتفعة قليلا ، أثر موسم الأمطار الفائت .

دخلت بيتها ، وبرمت حول مشب النار، برمـــات حثيثـــة ، ثم أوصدت الباب وهبطت إلى مزرعتها القريبة ، حيـــث (ســـعيدة)، وأخوها .

قالت (سعيدة)لأمها التي بدأ انشغالها بأمرها :

- (الحقي .. الدنيا حر ، والشمس كما القبس) .

- (الزرع .. بيموت من الظمأ) .

وعقبت بكلام حكت فيه لبنتها عن (مـــاطور أبـــو عطيـــة)، وزادت : (أعقـــب يالـــزمان) ، (فالآن . يا بنت الرجـــال، جاء يوم فيه تحتاجين (عامر) ، الوحيد بعد (أبو عطيـــة) ، الـــذي يمتلك بالريالات ماطورا ، فأما أن تذهبي إليـــه ، وأمـــا أن يمـــوت زرعـــك .. ماذا أنت فاعلة ؟) .

قالت لخاطرها المتردد : أذهب إليه .. أقول ، مثلما تأخذ مـــن الناس أجرة لعمل ماطورك ، أعطيك ، لا منة ولا ذلة .

عندما نادت باسمه طرف ساحة الدار ، خرج .. خرج كالنبلـــة بلا سواك ، ولا عمامة .

قالت له بالقول القاطع :

- (ما جيت أسلم عليك ، ولا أشرب قهوتك ..) .

- (يا مخلوقة ، البيت بيتك ، اطلبي .. من عيني هـــذي قبل هذي).

لعنت ساعة جاءت بها في هذه الحال ، وشرحت لـــه سبب المجيء، قال:

- (الماطور ، وصاحبه .. بين يديك) .

- (ما قصرت .. وكل شيء بثمنه) .

كانت تعلـــم أنه يحـــاذر كلمـــة يتشفى بهـــا ، وأنها لو طلبت منه ما هـــو أغلى لمنحهـــا دون أعـــذار ، لكنـــها وجدت أحلى الأمرين .. فجاءت إليه .

حين استـــدارت عائدة ، رأت من خلال البـــاب ، أكياســا مضغـــوطة ، يربض بعضها فوق بعض .

أقفلت كالغصن النضر في عينيه ، إلى حيث التهمتها الطريق المندسة بين البيوت.

قال (عامر) لخاطر صدره المدهوك : اليوم ، تجئ بك الحاجـــة يـــا بنت أحمد ، واليوم .. أقلبك من هذه الكف ، إلى هـــذه ، لـــو قلت أني مربوط بلساني مع شخوص آخرين ، يرغبـــون في ســـقاية مزارعهم ، لمات زرعك .. فان كنت (بنـــت أبـــوك) ، فاســـقيه

بدلوك، أو دعيـــه يتحمص من الظمأ ، لكني فتحت لك صـــدري، وحشتك بين يدي .. لعل غامضة تصيب .

* * *

منذ يقظة الأول ، جاء (عامر) بـــ (الماطور) ، وركبه علـــى البئر ، فاندفع الماء يتسابق إلى الزرع . قال : الآن وقتك يا بن أبيك.

وعندما فرطت (بنت أحمد) ذؤابة شـــيلتها ، لتنقـــده أجـــرة ماطوره .. فرك فمه بالسواك ، وسكب عينيه بعيـــدا عـــن يدهـــا الممدودة ، وقال:

- (العيب على لحيتي ، لو أخذت منك قرش واحد).

- (قلت لك يا مخلوق .. مثلي مثل غيـــري) .

- (طيب .. خليها عندك ، بعدين) .

- (اسمع يا عامر .. لاتاهب مسمار جحا .. حقك خذه) .

- (عمرك .. أبيتي تطيعين شوري) .

- .....

- (ايش ، قلتي ؟) .

نظرت إلى وجهه الصامد في عينيـــــها ، وقذفـــت بالريـــالات المدعوكة قدامه ، أعطته قفاها نحو الداخل ، مخلفة السكون والحسرة.

لم حبال ماطوره ، وابتلع مكايدة غائرة ، لا أمل على ما يبـــدو في تحملها ، قلب (أخماسا في أسداس) .. هذه المحمومة ، كيـــف لا يلين رأسها ؟ .

هل بلغها ما فعلته ببقرها ، وبحطب بيتها ، وباسمها في ســـــجل (ابن رابح) ربما أنها أيقنت انك يا (عامر) الفاعل ، فأبت منـــك إلى يوم الدين .. لكنك قبـــل أن تفلـــت كوامـــن صـــدرك في هـــذه الفعال..كان داخلك صافيا ، وبعثت إليها بمن ينصح ، قلت : أذهـبي يا (فاطمة) العجوز ، لعلها تأخذ منك بالرأي ، وما أعطتك وجها .

* * *

اليوم :

نما زرع الذرة في حقول الخلق ، واشتد عوده ، وقست الحبوب في أعالي القصب ، وبقيت أيام ، و(يقصع) الناس عذوق خريفهم.. بل أن البعض قد جنى حصاده ، و(حزم) عيدان القصب .. حزما حزما ، ونقلها على الحمير إلى الدور .

أما من لم (يكتب له الله) ، ويحصد محصوله .. فإن للغمامات الحمراء نصيب ..فمنذ أن فرك الناس عن عيونهم نوم البارحة ، كان الجراد ، يهبط كالمطر فوق مزارعهم ، غزيرا .

وراح يفتك بكل ورقة خضراء ، ولا يمنعه من أكل الذرة إلا قساوة القصب ، الحبوب الناضجة الصلبة .

وتلك (رحمة السماء)، فلو هطل هذا الذي لا يبقي ولا يذر، قبل أيام لا تزيد عن شهر القمر ، لجعل من مزارع خلق الله.. شيئا أو بعض شيء .

نزل الناس إلى حقولهم ، واختلطوا بقوائم القصب .. يحوشون الجراد ، وينفرونه في البعيد ، فيتطاير قريبا وينتقل من جانب إلى جانب جاءوا بأكياسهم ، وأقحموا الجراد ملئ فراغاها ، وطبخوا منه لأيام جافة قادمة .

ملأت (صالحة بنت أحمد) وبنتها الكيس والقدر ، أشعلت النار بكل الحطب المركون ، وعاشت (سعيدة) جمال يوم مر بها منذ خمس سنوات ، حين جرت فيه خلف الجرادات لتصطاد.

شاهدت القطط كرة أخرى .. تأكل في الساحات ، حتى تفيض بطنها وتتقيأ وجاء أخوها المنبهر بمحصول الجراد الوفير ، يتصيد ويلقي في النار ويأكل فنهرته أمه :

- (بيوجعك ، في بطنك يا ولدي) .

بلثغة تود لو أنه تقضمها .

قالت (صالحة بنت احمد) الحمد لله .. جاء الجراد في يوم أشتد فيه عود الذرة ، وقسي الحب عليه ، فليأكل الورق الأخضر، ويبقي ما لا يقدر عليه) .

على أي حال أكلت الجرادة رزقها ..

فقد كان الجراد هذه الهجمة قليلا في عين من طافت به جحافل سابقة ، يوم أن كان يفني الأخضر واليابس ، وتساءل الناس :

- (يقولون .. انهم سيقضون عليه ، بدواء أسمه (سم الجراد) .

- (منذ زمن ونحن نسمع ، أنهم اخترعوا مبيدا قاتلا له).

- (ليتهم لا يفعلون ، فهو وأن أكل مزارعنا .. فهذا رزقه ، كتبه الله له ، ونحن نصطاده لنأكله).

- (لا تقولوا ..هذا نقمة من المسلمين) .

- (ولم لا يكون خيرا ، يرسله الله لخلقه ؟) .

(أيام زمان ، كان يباغتنا كل سنة ، وفي العام أحيانا مرتين) .

أصبح يوم بشمس جديدة ، نثرت ضوءها على الدنيا ، وقد خلت إلا من بقايا هزيلة متعطلة لا تقوى على الفرار ، وبقيت أعواد الذرة بلا ورق .. لكن العذوق المحببة ، تتدلى كالعراجين فوق القصب ، وجنى الناس ثمرتهم ، فلم يحرم منها بيت بذر في يوم حبة ذرة ، كما يقولون لك (كل شدق ، وله رزق) .. أخذ الجراد رزقه ، ويبقى للإنسان والحلال والطير رزقه .

* * *

كان الناس في كل موسم ، يجمعون نصيبا غير معلوم ، لكنه يجمل الوجه ، من كل بيت ما يراه ..صالحة بنت أحمد كانت تحمل على رأسها نصيبا وتذهب به إلى بيت الفقيه ، وكان الفقيه يعرف كم يعطيه فلان وفلان ، فيخلط حبوب الناس مع حبوبه ، ويكون أكبرهم في المؤونة.. من السنة إلى السنة ، لا يشكو نقصا .

ومع أن القرية تمتلك المتعلمين ، والقادرين على القراءة و الكتابة ، شبابي العمر .. إلا أن القوم جعلوا في فلان ، قدوتهم لخطبة الجمعة والصلاة ، ومحطة فرضها مع الأيام ، يستقبل فيها الوافدين من (طرف الحكومة) ، وكل ضيف جديد .

وحين يبلغه بلاغ من الخارج يقرأه في ساحة المسجد .

كان يحب أن يقول القول ، فيبيعه السامعون دون نقاش أو معارضة ، وجذب إليه (عوام) ، وبعض الذين لا يعرفون غير (صدقت يا فقيهنا) و (الرأي .. رأيك) ، وعلى كل الجوانب، فقد كان يصلي بهم على جنازة الميت ، والاستسقاء ، والعيدين والكسوف والخسوف ، ويحدثهم بأحاديث السيرة والتقوى والطاعة ، فيصدق فيما يعرفه من قبل ، وإن شح عليه ذلك .. أضاف وتطوع باجتهاد لا قريب لها ولا بعيد.

وكان البعض يأخذ مريضه من الأطفال ، والعجائز ، فيكتب لهم (المحوة) بالحبر الأسود ، يسطر فيها الفاتحة ، وبعض التعاويذ، وآيات متفرقات من القرآن ، ويوصي بنقعها في الماء وشربها .

أما إذا رأى أن المريض به خلل لا يرجى شفاؤه .. أكد على أن به مسا من الجنون ، فيقعده بين يديه ، ويتمتم بأقوال لا تسمع، ثم يبخ في وجهه بصقات على هيئة رذاذ ، ويضرب على رأسه، داعيا له بالشفاء . فان الله جعل في بصاقه الشفاء ، وإلا اقتيد إلى فقيه تعرفه كل القرى ، بالقدرة على إخراج الجنيات من أبدان المرضى، يركب له السعوط والمعوط ، ممزوجة بحناء السدر والسمن والعسل، أو يضربه بالعصا الأليمة حتى يتمدد من الألم مغشيا عليه.

ثم يوصي أهله بتكتيفه بالسلاسل ، وحجزه بعيدا عنهم ، وعن مقابلة الناس ، في حجرة مقفلة ، لا يأتيه فيها أحد .. إلا من يطمئن إليه ، يقدم له الغذاء والماء .

واليوم . .

صاح الناس على (صالحة بنت أحمد) ، قالوا : خرجت في الليل، وشتمت بنتها ،و دعت فيها الجن ليختطفوها : (آهي لهم.. خذوها يا جن) ،لكنهم ودون أن تراهم.. نطوا على كتفيها

ولعبوا بأشداقها ، فأصبحت بشفاه منفرجة ، الله يكفينا ، إذا كلمها أحد ، نفرت في وجهه .

وكيف فعلت بحالها وعيالها ؟ .

جرت بنتها إلى جارتهم ، التي لثمت ، ولثمتها بشر شفها، أركبتها على ظهر الحمارة ، وساقتها إلى الفقيه فلان ، مداوي البشر من الجن ، وقاهر كل المجانين المستوطنة بدمائهم الجنيات الخبيثات .

وماذا قال عنها ؟

قال لجارتها : هذه الحرمة قاسية الطبع ، معصوبة البال لا يمكنني وصف الجني الذي دنا منها بسهولة ، لكنني سأستعين بالله ، وأبدأ علاجي معها ، وسأل إن كان خلفها رجال يقدرون على وضع ثمن العلاج ، فاستعدت جارتها .

وبعدما تحدثت معه (المشدوقة)..قال لجارتها ابشري يا بنت فلان..مريضتك محظوظة .. فالله سلمها من فعل جني كاد يودي بحياتها، فقد جاء في الفم ، وأخلف شفتها العليا عن السفلى .

سوف تعود كما كانت ، ولكن .. لا تقطعي بها زيارتي بعد ثلاثة أيام بلياليها ، تدخلين عند زوال الشمس عن مغربها ، وتمدين قدمك اليمين (باسم الله) ، قبل أن تعبري ساحة الدار .

تكفلت جارتها الطيبة بها ، وباتت معها ومع عيالها ، وجرعتها الدواء مسحا وشما ولطخا ، في المساءات والصباحات ..حتى ضاعت لمسة الجني ، وأطبقت فمها مثلما يطبق خلق الله أفواههم .

* * *

كانت (صالحة بنت أحمد) تشكو من وجع (الشقيقة) في رأسها ، وزاد عليها وهي واقفة قرب (ماطور) (عامر) ، الذي نفذ دخانه في أنفها ، ولم تكن اعتادته من قبل ، فنامت في بيتها أياما لا تعرف السبب ، وحين دعت جارتها ، عرضت عليها الذهاب إلى الفقيه ، فالدكتور لا يعالج واحدة خرجت في الساحة ليلا تتوضأ، وعادت مقلوبة الرأس ، رأت أنه ربما كان الوجع المتزايد ، قادما من شيء فعلته ، ولم تذكر عليه اسم الله .

غير أن لسان الناس ، يزيد على الحوادث ما لا يحدث ، وغيابها عن الأعين ، أياما لم تخرج فيها .. قيل عنها ما لا يقال .

والآن ..

خرجت إلى الوادي (صالحة) وقابلت بعض نساء القرية على البئر ، فكن يحدثنها ، وفي دواخلهن ريبة لا يمكن القول بها . صفقن اليد باليد ، وقلن : ذلك الفقيه ، لا تصعب عليه صاعبة .. في ليال. وإذا بها تنهض مثل الفرس .

قال البنات لـ (سعيدة) حين قابلنها في الطريق :

- (كيف حال أمك ؟)

- (طيبة)

ورأت في كلا مهن القليل وسؤالهن ما لا يرضيها ، وحين أخبرت أمها تنهدت وغنت بصوت خفيض (كل ما قلنا صفا الملء.. دغمجوا به ..) .

سرحت مع شعر بنتها الذي عودتها على تضفيره ، تدهنه بزيت الرؤوس الجديد .

ذهبت توصيها بعدم الرد على من يسألها ، وألا تحاول المشاقة مع أحد ، وقالت لها حكاية البنت التي فرض عليها أبوها عريسا عجوزا ، و لم تقدر على رفضه أمام أبيها ، فهربت إلى جارتها في قرية بعيدة ، واختبأت و لم يرها أهلها .

قال الناس .. اختفت ، والجن خطفوها ، وبعد أيام ، صدق أهلها ما قاله الناس ، وفقد أبوها أمل عودتها ، فاعتذر العجوز الذي استرد ماله ، وتزوج من امرأة كبيرة مات زوجها ، لم يقبل به غيرها .

وذات صباح .. جاءت البنت مع جدتها ، فخرج أهلها، ووعد أبوها نفسه ألا يزوجها إلا بمن تحب .

سألت (سعيدة) :

- (ايش قالوا الناس . . ؟) .

- (الناس ما لهم ، إلا ألسنتهم ، قالوا .. ردها الجني) .

* * *

مثل غيره من الشهور .. انسلخ شهر شعبان ، وظهر شطر جانبي من أول شهر القمر، وجاء في الراديو أن (رمضان شهر الخير والصيام) .. حل على المسلمين ..

شهد شاهدان أمام القاضي ، بأهما رأيا الهلال ، فثبتت شهادهما ، وأعلن دخول (الشهر الفضيل) . كما كان يحل كل سنة .. يستعد له الناس ، مرة في الصيف ، وأخرى في فصول أخرى تتأخر أو تتقدم . دخل الصيام ، بعد (ظهور الخيط الأبيض من الأسود من الفجر) إلى غروب الشمس .. في كل بيت ، لا يفطر منه صغير و لا كبير، الكل لا يحب أن يسمع آذان المغرب إلا وهو على وضوء وصيام .

كان الجماعة حول المسجد يجتمعون ، والفقيه بدأ الدور الأول في تجهيز دلة القهوة الكبيرة ، وصحن يكفي كل فرد منه حبتان من التمر ، يأتي دور على كل بيت إلى أن ينقضي الشهر .

يعود الصائمون الذين أفطروا بالتمر والقهوة ـــ من بعد سماع كامل الآذان والصلاة خلف فقيههم – إلى دورهم ، يجلسون مع

أهاليهم للعشاء والسمر قليلا أو كثيرا جانب الراديو ، ثم يدفنون أجسادهم في النوم إلى وقت السحر .

جاء (رمضان) على (صالحة بنت أحمد) ، فأخرجت ريالات عتيقات صرتهن لمثل هذا اليوم ، اشترت من سوق القرية.. مثلما يشتري الناس ، أشياء قليلة لا طعم لها إلا في أيام يبقى فيها الصائم دون طعام من الفجر إلى المغرب وهناك في قدر بغطاء موثوق .. (الحميس) من قطع لحم البقر الصغيرة المطبوخة بالملح والبهار والشحم ، منذ عيد الضحى ، يبقى لشهور في الطقس المعتدل البارد ، لا يمسه مع الأيام خراب ولا عفن .

صامت (سعيدة) عامها الخامس لا يغيب عليها يوم ، وانفرط منها مع كل عام جديد ، فرصة مبهمة تقل في كل رمضان .

فقد كان لرمضان الصيام فرصة لا تجئ في السنة ، إلا مرة تأتي كشمس الضحى الدافئة في الشتاء .

وحيث أن الديك الذي لا يرحم نائما ، منذ أن يبدأ النصف الآخر من الليل ، فإن نوما كان يرتع في العيون الصغيرة ، لا يلبث أن يتردد في البقاء على أعقاب الجفون أما اليوم ، وبعد أن حدث الأم

شفرتها على رقبة ديكين كانا معها منذ أعوام .. فإن الساعة المنبهـــة تجرس صوتا يمكن إسكاته دون نهوض .

كان أخوها الرضيع وقتها ، لا يعرف صحـــوا في السحـــور، واليوم تحاذر وأمها يقظته التي لا ينام بعدها .

كانت للعيد قمة ابتهاج الحلم ، ففيه الثوب الجديد والحلـــوى، والأكل المدعم بالتمر والسمن واللحم في كل دار ، وفيه تطل شمـــس على الصدور .. لا تطل بفرحة في يوم مثله .

واليوم تضحي الشمس بثياب تعرف إليها القلب الصغـــير ، في صباحات أعياد مرت عديدة ، فأصبحت لا تحـــرك النشـــاطات في العظام ، ولا تأتي معها بالحلوى والألوان البهيجة إلا على قدر قليـــل، لا يصيب القلب منه إلا نتفا.

أصبح عيد جديد على صدر (سعيدة) وفيه كما يقولون (كما فناجين القهوة المكببة) .. حلمان صغيران يتباطـــأن لنقـــر ثوبهـــا المضغوط في المواجهة من البدن ، ومعها كانت الأشياء تبدو بوجــــه جديد ، ولون جديد لم تكن تعرفها من قبل .. (فماذا أنت قائلة يـــا (بنت أحمد) ؟ ، ليحفظ الله لك هذا الفرح المتـــبرعم في عينيـــك، وليهنئك بيوم ترين فيه زهرة نمت مع أيـــامك .. نديـــة هنيئـــة ، لا

تأخذها منك بالصروف زلة الدهر ، ولا جوع الليـــالي وعذابـــات الصبر.

غدا ستغدين في الأنظار أم العروس .

يملأ كل عين ، ويسد كل كريمة من الناس والزمــــان تدنـــوا إليـــك).

قامت (صالحة بنت احمد) إلى كيس الحنطة المركـــون بحـــدة البيت فملأت مكيالاً فاض ، وصبته في وعاء مد به شحاذ يطـــوف بالبيوت في رمضان ، سيعقبه أخريات ، بعيالهم وحميرهم ، يـــدورون عن زكاة الهائمين في القرى ، يأتون من القرى المجاورة من الســـهول والوديان الفقيرة البعيدة .

أما من لم يملك حرث يومه في القرية ، فسوف ينال من النـــاس نصيبا له ولعياله .

أوصت (صالحة) بنتها .. إذا جاء من ينشد في غيابها ، فلتعطه ملء ذلك المكيال من الحنطة ، فكانت إذا وقف على الباب : (يـــا رب يا كريم) ، لا ترده بـــ (الله ، يعطينا ويعطيك فقط) ، بـــل تدفن المكيال في الكيس ، وتقدمه فائضا.

أما إذا كان المتشحذ من ذنيك اللواتي يحملن على ظهورهن أطفالا نائمين محلقي الرؤوس نحيلين ، فإنها تقعد معهن على عتبة الدار ، وتحادثهن ، فيخبرنها أنهن من ديار بعيدة ، لا تصلها السيارات، وليس بها مدارس ولا أطباء ، وبيوتهن من القش والصفائح.

- (وكيف ، تزرعون ؟) .(يا بنتي .. بلادنا حارة، وأمطارها قليلة .. ما تصلح للزراعة .. إلا في موسم واحد قصير).

- (.. عندكم حلال ؟) .

- (بعضنا يرعى الماعز في الجبال ، والقليل يربي البقر) .

- (عندك .. عيال ، غير اللي معك ؟).

- (يا حافظ .. عندي ثلاثة ، مع أبوهم، واثنين .. ماتوا من الحمى ومعي شوفة عينك ، هذا الرضيع ، وأخته) .

كانت تلك الشحاذة التي وقفت على العتبة في ضحى يوم من أيام العشر الأواخر من رمضان .. تقعد وكأنما تتهيأ لوضع يديها في صحن تعجن عجينا قاسيا من الطحين .

وكانت بنتها الواقفة قربها كالمسمار ، تساعدها في حمل أوعية الحب المخاطة من القماش الأبيض الثخين ، وقد كتب عليه بالحبر الأزرق (دقيق أمريكاني عال العال) ، قالت وهي تحطه فوق رأسها ، أنها حصلت عليه من (أهل الخير) .

وهبت وجهتها نحو الساحة وأقفلت داعية لهذه الصبية وأهل بيتها ، وعندما دخلت في الطريق ، قابلت امرأة تقودها حمارة، على ظهرها كيسان متوازيان في خرج ، كصرتين كبيرتين سلمت عليها ومضت . كانت (صالحة بنت أحمد) آتية من القرية المجلورة، حيث يذهب الناس ، إلى (بابور الطحين) ، الذي يطحن صاحبه لهم حبوبهم ، كل كيلة بكذا ، ويبيعهم من دكانه الصغير .. أشياء يحتاجونها ، يقيد على من ينقده حقه ، في سجل لا يختلف كثيرا عن سجل (ابن رابح) .

عندما سألت (صالحة) بنتها عن أخيها .. قالت أنه خرج مع أولاد القرية يلعبون ، فطمأن قلب الأم ، وحدثت نفسها بأشياء

جميلة واعدة ، أولها إرساله للمدرسة مع أطفال الآخرين ، فطفل يشارف زمنه الولوج في السادسة ، لا يليق أن يضيع أول عمره في البيت ..أو أن يقعد من بعد فتح المدرسة خلف انقضاء أيام قليلة تجري .

* * *

فرح (أحمد) بحديث أمه ، حين أخبرته أمام أخته (سعيدة) بإدخاله المدرسة ، وقال أنه يريد أن يكون كالأولاد الآخرين الذين يحملون القلم والدفتر ، ويحفظون القرآن والحساب ، ويعرفون الحروف والكتابة .

وعندما أخذته صبيحة يوم مشرق إلى المدرسة ، كان ثوبه الجديد .. مغسولا أيضا ً، وعلى رأسه عمامة بيضاء نظيفة .

قالت أمه لمدير المدرسة ابن فلان من القرية : (هذا ولدي .. عهدتك) ، ضحك ووعدها بخير الأيام ، وضمه إلى التلاميذ، سألها عن (تابعية) أبيه ، قالت أنها (في الحفظ والصون) ستجيء بها في الغد .

حفظ ما تعلمه من القرآن ، وردد في البيت كثيرا (قل هـــو الله أحد) و (قل أعوذ برب الناس) ، وكانت (سعيدة) تحاول حفـــظ ما يحفظ ، متمنية لو أن للبنات مدرسة ، لكانت دخلتها، وحفظـــت كل ما تملي عليهن من التعليم .

حين يحين مع يقظة عين الشمس .. وقت ذهـــاب (أحمـــد) إلى مكان يجتمع فيه أولاد القرية ، في حجرات قليلـــة بعضـــها بمقـــاعد دراسية ، وبعضها يقعد فيها من هم في الســـــنتين الأوليـــين علـــى مفـــارش من (الحنابل) يمنحههم المدرسون فسحة بعد حصتـــين أو ثلاث – تكون البطن خالية، قد شغلت حاملها بـــالجوع ، تضـــع (ســـعيدة) في حقيبة أخيها ، كسرة من(الخبزة) ، تدســـها بـــين الدفاتر .. يأكلها (أحمد) ، في الفســـحة ، كمـــا يـــأكل الأولاد، يشربون جميعا بعدها ، من الماء الوفير في ساحة المدرسة .

قال المدرس لـــ (أحمد) انه تلميذ ذكي ، يحفظ الدرس ، ويطيع الأمر ، ويعرف الواجب ، فكان يضعه في مقدمة الصف ، ولم يخـــل هذا من عراك لم تسلم فيه أذنه من (يا ولد المرأة) ، فكان يود أنـــه رجل كبير ، ليأخذ حقه ويقهر القاهرين ، ونشبت معركة شـــهدها

كل الأولاد ، بينه وبين واحد قال أن أمه مجنونة ، فقذفـــه بحجـــر ، وكاد لولا أن (سلم الله) يصيبه في عينه .

قالت (صالحة بنت أحمد) لا بها .. أنه ليس ممن يعتدي علـــى الآخرين باليد ، فكما أن ابن فلان اعتدى عليه بالشـــتيمة ، فلـــيرد عليـــه بمثلها لا بيده ، وبينت له بالقول الوفي .. أنها لا تود معـــاداة الخلق .

- ٥ -

في ساحة بيت بمصراعين مفتوحين ، ونـــافذتين في الواجهـــة، بعواميد حديدية .. كان رجال ونســـاء وأطفـــال .. يحتشـــدون، يدخلون ويخرجون ، وكان الفقيه في الداخل ، يلزم على رأسه يـردد: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، و (انا لله و انا إليه راجعون) .

بقربه على سرير هابط ، لفافة جسد آدمي بيضاء ، تكاد تغمـــر ظهر السرير. كان يبدو من تلك اللفافة أنها تخفي دما غسل طويـــلا بالماء .

قليلا .. ودخلت امرأة قصيرة بيضاء ، لم يكن على رأسها غـــير شيلـــة بغير معصب المنديل ، بان أنها تركت شيئا مهما من يدهـــا، وجاءت مسرعة .

كانت تردد : (قطع الله أيدي يا .. آبى ، يا .. عامر) .

جرت خلفها امرأتان ، قبضتا علـــى ذراعيـــها ، و جذبتاهـــا نحوهمـــا: (اذكري الله ، اذكري الله ، يا مخلوقة) .

وشقت الجمع واحدة بيدها زجاجة عطر زرقاء ، نثرتهـــا علـــى البدن الملفوف ، ففاحت رائحة قوية أنعشت الأنوف .

قعدت (عزة) مع جمع اجتنبت جلسة الرجال قليلا من مقدمـــة السرير ، وظهر وجهها الخوخي ، فاقعا مصفرا ، بانت عليه تقـــاطيع شحنة مفجوعة متعبة ، كانت قطرات زجاجية مسابقة ، تسيل مـــن عينين ضامرتين . بين الفينة والأخرى ، تمسح بشيلتها عينيها وأنفها .

ذهبت تحدث جليساتها عن لحظة جاءها الخبر ، قالت أنها كانت (تموص) أواني الغداء ، بعد أن أكلته مع زوجها وأولادها العائدين من المدرسة ، وإذا بـ (صائح) يصيح..ظنته لأجل دعوة الناس ، لإنقاذ أحد وقع في البئر، أو ثور قطع عدة ظهره ووقع من المجرة ، أو شيئا كهذا .

وما لبثت (غمضة عين) حتى دخل ابن فلان حاميا (الحقي يا عمة عزة ..أبوك مذبوح) ، رمت من يدها الأواني ، (كما المجنونة) خرجت بلا حذاء ، لم يكن هناك وقت لسؤال الولد عن أي تفاصيل، كانت تتحدث إليهن وتشهق .. تمسح عينيها وأنفها من قطر أبي أن يتوقف .. سكتت ومضة وأضافت : (مدري ، ايش جرى ؟ .. حسبنا الله ، ونعم الوكيل) .

* * *

كانت بنت (مرزوق التومي) الذي يجبر العظام المكسورة ، ترعى قرب مزرعة (عامر) تلك المساحة الخضراء الخصبة ، التي أغتصبها (عامر) قبل سنين بعيدة ، بعد منازعات كادت تذهب بالرقاب .. قدم المغتصب شهودا بالزور ، والفلوس والحلفان ، إلى قاضي الحكومة في السوق ، فكتب له عليها .. ووسعها ، وأوصل إليها الماء ، وضمها إلى أراضيه .

جاء الزمان ، وذهب الزمان ، وقال الناس : لو أن معك يا مرزوق حجة مكتوبة على الورق ، لأوقفته عند حدوده .. قال لهم بكبد محموضة ، أنكم تعلمون أننا لا نملك على أراضينا جميعها حججا ، فمن أين أجئ بها ؟ .

غير أن القاضي يريد صكا يثبت به قول (مرزوق التومي)، وخاف الناس من اعتداءات (عامر) ووقوف الفقيه معه ، ومن فعل الريالات ، فسكتوا على المرارة .

جاءت زلة بهائم الحيوان ..

حينما كانت بنت (مرزوق) ترعى غنمها ، دخلت في المزرعة فهرول (عامر) .. أخرج الغنم بعصاه ، وقبض بشـعر راعيتـها، فسحبها ، وملأ ظهرها بالضرب .

دخلت البنت عند أبيها تبكي وتتـوجـع ،مـا كـان مـن (شيطـان الغضب) إلا أن دفع (مرزوق)كـالجمل الهائـج، اختطف (جنبيته) وسلها كالسيف صائحا (الحقني .. إن كنـت ولد أبوك ، يا عامر) .

ما أن قابله حتى هوى بحد (الجنبية) بين أكتـاف (عـامر) فسقط دون أن يمد ذراعه ليقاومه .

وقتما جاء الناس بعد صوت الصايح .. لقـوا كمـا يقولـون (الفأس في الرأس) لموا المذبوح ، ونقلوه على سرير إلى بيته .

أما (مرزوق التومى) الذي لم يكن ليصدق أحد فعلته .. فقـد عاد داره بجنبيته المصبوغة بالدم ، ونهر زوجته التي صـاحت بـه، داعيا إياها لتحضر له ماء ساخنا ، ليغسل به الدم .

بعد غياب عن الكلام ، بدل ثيابه ، واحتزم بسلاحه الـذي رواه في دم (عامر) ، قال لزوجته ، أنه ذاهـب إلى الحكومـة في السوق .

* * *

رأى الفقيه أن (إكرام الميت دفنـــه) ، فحملـــه الجماعـــة إلى المقـــبرة ، ودفنوه بعدما صلوا جميعا صلاة الميـــــت وراء فقيهـــهم، الذي طلـــب منهم مسا محته والدعاء له بالمغفرة .

غير أن كثيرا من الألسن ، قالت في سر الصدور: (يجـــزي الله كلا بعمله) .

دعا الفقيه الحاضرين إلى بيته ، ليقيموا أيام العزاء الثلاثة . و كما قالوا ، فإنه لن يخسر من حقه شيئا ، فهو ذنب لـــه ، وماله من بعده كثير .

وفد الرجال إلى بيت الفقيه للعزاء ، يستقبلون مـــن يأتي مـــن القرى المجاورة القريبة ، مثلما تجري العادة ، فيقعدون وقتا يســـيرا، يشربون القهوة مع التمر ، ويسمعون حديث الفقيه .. ثم :

- (أحسن الله عزاكم) .

- (عظم الله أجركم) .

بعد أيام لا تزيد عن عدد أصابع اليدين ، جاءت (عـــزة) إلى (صالحة بنت أحمد) ، شربت قهوتها ، ودار الكلام في سيرة أبيـــها قالت أنه كان بقلب آدمي .. يصيب ويخطئ ، وللشيطان على عقـــل ابن آدم دعوة للخطيئة ، فان كان قد دله إبليس على فعـــل مـــا لا يحمده الحي بعد وفاته ، فإنها تطلب منها (العفو والسماح) ، قبـــل أن (يبعج) في القبر قلبه .

قالت (صالحة) قولا حميدا ، ووصفت لها كيف أن الآخريـــن يظنونها هنئت بموت (عامر) ، وهذا بعيد عن الصدمة التي لحقتـــها وقت سماعها بذبحه .

أضافت : (راح بخيره وشره .. الله يرحمه) .

أما ما كان من أمر (مرزوق التومى) فإنه بعد أن بدل ثيابـــه، وقبل بنته وقطف بعينيه وجه زوجته .. قال باللسان الوثيق : (يعقبني الله ، عليكم بخير) ، ومضى بقدم راكضة إلى موقع سوق القـــرى، حيث مركز القاضي .

وقف قدام القاضي ، مهملا كل المانعين والمنتظريـــن ، حـــل عـــن وسطه جنبيته ووضعها بين يديه قائلا : بهـــذا الحـــد رويـــت

ظمئي.. قتلت به رقبة ، عامدا قاصدا ، وجئت أســـلم نفســـي ، لا تقولون أين الشاهد والشهيد ؟، هذا أنا ، وهذي رقبـــتي .. أني أنـــا الذي عرفت كيف أختار موتي .

نظر القاعدون إلى هذه القامة المديدة ، بثيابها النظيفة ، والســـلة البارقة في يده، بلغت الدهشة صدورهم ، وبلغ العجب و الإعجـــاب بصائرهم .

نظر القاضي إلى عسكري أمامه ، وأشار بإدخاله سجن المجرمين إلى حين .

دفع (مرزوق) العسكري من كتفه ، رافعـــا صوتـــه بأنـــه لا يحتـــاج إلى من يلمس في جسمه شعرة ، فهو ليس مـــن الجـــبن أو الخوف ، مـــن قريب ولا بعيد ، حتى يقتـــــاده واحـــد مثلـــه إلى الحبس.

غير أنه ما لبث أن تقدم آخرون من العسكر ، وجذبوه خــــارج الغرفة الراكدة بالعيون والصمت .

كان القاعدون يتبعون مشيته المنتصبة ، وقد أبعد عنـــــه أيـــدي العساكر ، وخرج من الباب النظيف المســـــتقيم ، الـــذي يختلـــف بلمعانـــه وجمال نقوشه عن أبواب البيوت في القرى .

وحرك القاضي الماكث على مقعد يدور كيفما شاء جسده، وخلل بأصابعه ما بين لحيته ، وأشار إلى رجل بلحية مهذبة ، يجلس قربه ، أن يقرأ صفحة كبيرة مفتوحة أمامه .

أما أن وقت العمل قد أوشك على الانتهاء ، فإن ذلك الباب الذي يدخل منه القاضي والمتقاضي .. لم يفتح لأي وافد ،بل استدبر نفر غير قليلين ، خرجوا بمواعيد في أيام آتية .

* * *

بكعب بندقيته ..دفع عسكري كتف (مرزوق التومى) فأدخله على عدد من المساجين ، بعضهم يقعد على بطانية عتيقة يحدق في الجدار ، وآخر يتغنى بموال طويل يقال بلسان فلاح .. يسوق سانيته في مجرة البئر ، وآخر يصفق بيديه كما لو أنه ولج على التو ، ويردد : (يا غبني .. غبناه ، على شبابك يا سعيد) .

أما واحد ، فكان يفتح عينيه الليمونيتين عن آخرهما ، ويقف محييا (مرزوق) باسمه ، ويدعوه للجلوس بجانبه قائلا : (اقعد يا مرزوق .. السجن للرجال) دون أن يعرف قضيته ، التي أختصرها (مرزوق) بـ (ذبحت رقبة ، يا بو فلان).

قالها دون وفرة كلام ، عالما كما يعلم كل أهالي القـــرى ، أن فعلا كهذا لم يعد من العقل هذه الأيام ، فقد ندرت حالات الحمـــق المستوجبة للقتل في القبائل ، إلا من أخذ مثل حقه دون إنصـــاف في الحكم في وضح النهار ، كانت أجابته دون تعب من الســـامع ، لا تدل على رغبة منه في تتبع التفاصيل ، و لم يسأل (أبو فـــلان) ذاك، عن سبب حبسه ، بل أركز رأسه على مرفق يده و.. صمت .

وأما ما كان من أمر الفقيه والجماعة ، فإنهم اقتضوا أمـــرا رأوا فيه الزيارة فبعدما انقضت أيام العزاء ، وبـــات (مـــرزوق) ليـــال ثلاثـــا ، ينقلب على جنبيه ، منتظرا حلول سوق خميس القـــرى .. جاؤوه تصحبهم زوجته الملثمة بشرشفها الأبيض العريض ، حيـــث سلموا ومضوا تاركينها خلفهم ، تطعمه من قدر صغـــير ، عمـــت رائحة البيض المسلوق والسمن المكان ، ونضب لسانها بفقر الكـلام ، أما هو، فكان يوصيها ببنته وبالحلال .

قال الجماعة لحضرتهم في جمعة المسجد ، من بعد دعوة الفقيـــه للاجتماع بعد الصلاة ، إن الخوض في أمر حصل كهذا ، يحتـــاج إلى حضور خلف (عامر) وأن (عامر) خلف من بعده بنتا واحـــدة،

تعيش مع زوجها كما يعلم الجميع في القرية المجاورة .. فلنرسل لدعوتها .

رأى مشير أن دعوتها للحضور من بيت رجلها ، أمر فيه نظر ، فلو أن زوجها قد مات ، أو سافر سفرا بعيدا أو كان غائبا غيابا لا أمل في رجعة قريبة ، لقلنا ندعو بنت قريتنا من قرية زوجها ، لكن زوجها حي يرزق ، ومن العيب القفز عليه وعلى جماعته .

اختاروا نفرا يذهبون إلى القرية التي بها (عزة بنت عامر)، وكان من رؤوسهم الفقيه ، الذي أشار إليه كبير الجماعة بالكلام، حيث اجتمع أهل القرية الجارة ، في بيت (عزة) وزوجها .

قال الفقيه : (قدر الله ، وأخذ عامر .. على يد مرزوق ، وكان الشيطان على حد الجنبية ، تعرفون أن عامر ، خلف هذي البنت وأشار إلى (عزة) القاعدة طرف المجلس ، وكان زوجها واقفا يصب القهوة المهيلة في الفناجين ، ويوزعها على الجالسين .

واصل الفقيه :

(اليوم ، جينا ودنا نشوف رأيها ، وشرع الله حكمنا .. ودها بدية المقتول ، وإلا تبغي رقبة القاتل ؟ وسلامتكم) .

ردوا بلسان واحد (سلمت) . التفتوا إلى كبيرهم الذي قال :
(جيتم ، الله يحييكم ، قدر الله وكتب ، والأعمار بيد الله، والحكم في هذي الأمور معروف .. الجواب خذوه منها ذا الحين) .

أشار إلى (عزة) التي كانت تقعد بلثامتها ، واهبة عينيها إلى الأرض سألها زوجها ، أن كانت ترغب في الدية ثمنا لروح أبيها ، أم تريد رقبة القاتل ؟

قالت (عزة) والأنظار تحوطها من الركن إلى الركن ، أنها تؤمن بقضاء الله وقدره ، ولم تفكر في أخذ ثمن لروح أبيها ، ولا ترغب في قطع رقبة القاتل ، الذي غواه الشيطان ، فلو رضيت بقتله .. وحرمان أهله منه ، فإن ذلك لن يعيد لها أباها .

أضافت بعد وقفة ، رأت فيها الرضى على وجوه القاعدين :
(عمي مرزوق ، رجال طيب .. يعرفه الصغير والكبير) .
صاحوا جميعا : (بيض الله وجهك ، يا بنت عامر) .

تعاقبت خلف جوابها كلمات الرضى والامتنان .

* * *

كان (مرزوق التومى) يتمخد ذراعه ، بعد ساعات ليلة سادسة ، سيصبح من الغد يوم لن يرى النور بعده ، وجاهد في طريق بعيد أن يدخل عناء جسده بعضا من النوم ، الذي أبا أن يدخل عينيه .

تحدث إليه سجين كان باقيا معه ، لأمر اهم فيه بقتل عمه التاجر :

(أقول لك ، يا سيد عيني والبقاء .. شهدوا عليّ جماعتي، قدام القاضي ، شهادة لا تقطر منها القربة .. قالوا حق وحقيق.. فلان ذبح عمه ذبحة النعاج . والله أن عمي يا صاحبي .. كان لا يعطي الحق طالبه . أوصاه أبي المرحوم ، يزوجني بنته ، من يوم كنا صغار .. قال أسمع وأنا أخوك .. حسنة لحسين . يوم كبرت وصارت كما الثريا .. يزوجها من واحد تاجر .. جاء من تهامة، يبيع ويشتري في الغنم والبقر ، يصمت قليلا ويسمعان عن بعد .. نباح كلب متقطع ، يغطي الليل كل ساكن في الأرض ، وتهب رياح الظلام فتئز في أبواب خارجية ، وتعوي في مفاصلها .

وحلقــات سلاســل ، تدلت مع خطــوات ســجين آخــر في الدهليــز الطويل ، لا يدري (مرزوق) ورفيقه من هو ، إلا إذا قاساه بسعاله المتواصل آناء الليل .

يسأل (مرزوق التومي) صاحبه في السجن مسايرا : (أيوه .. قلــت لي ، البنت كانت راضية ؟) فيهب ثقل جســمه علــى عجيزتــه، ويفرد ساقيه مانحا يديه أقصى ما يمكنهما مع الكلام والحركة (لــو كانت راضية يا صاحبي .. كان صدقنا وآمنا ، لكنها قالت لي ، لــو ما تزوجتني ، رميت بنفسي في البئر ، قبل ما أروح على التهامي) .

دخلــت على عمي ، وهو قاعد يعد دراهمه ، بعد المغــرب.. قلت له يا عم كيف تنسى أخوك ، يوم قال لك فلانة لفلان .

تدري ايش قالي يا صاحبي ؟ قال وهو يضحك .. أعط رجلــك الطريق .. أنا تاجر ، والتاجر ما يناسب غير تاجر .

لعب الشيطان في رأسي ، وهبدته بالمشعاب على رأسه ، طــاح وما قام بعدها .

صاح الصايح ، والتموا علي الجماعة ، يصمت ويحدق في وجه (مرزوق) ، ويزيد : (تدري يا صاحب ، ماني بزعلان، شفيت قلبي) .

كان (مرزوق التومي) يقلب جسده على الجنبين ، فوق بطانية ورثها عن سجين سابق ، ويشغل خاطره بعدد الساعات الباقيات . (فغدا سوق الخميس ، سيتعرف عليه كل أهل القرى ، قدام الصغير والكبير ، (الذي يسوى ، والذي ما يسوى) . يخرج السياف ويضرب بسيفه هذه الرقبة السمراء ، ويروح دمك يا مرزوق ، كما دم الدجاجة .. يا ويحاه) .

غير أن بشارة المبشر ، قبل ضحى النهار .. قضت على كل غبن في الصدر ، إذ جاءته زوجته ، ونفر من الجماعة ، مبشرين بعفو (عزة) عنه ، على مشهد من الجماعتين ، وأنها ستهبط اليوم .. بل لعلها في الطريق على التو ، إلى القاضي تسمعه بتنازلها .

قفز (مرزوق التومي) كأنما سيرقص في (عرضة) .. يقبل رؤوس جماعته فردا فردا ، ويحلف بالله العظيم ناذرا ، أنه سيذبح ثورا من اعتد الثيران ، ويقسمه على أهل القرية من طرفها إلى طرفها .

قعدت زوجته بلثامها الأبيض الكبير ، علــــى مقعــد ينحــاز جانبــا، تنظر إليه وتمسح ماء عينيها .

بعد أيام ، دعى الجماعة ليذبحوا الثور ويقتسموه ، أخذ من لحمه نصيبا ، وأخذ القلب ، وحمله إلى (عزة) .

* * *

بقي (مرزوق التومي) يشار إليه كلما لمحته العين : هذا الــــذي قتل (عامر) وخلصنا من شروره ، وكان (مـــــرزوق) لا يرضـــى بهـــذا القـــول.. فهو لم يقتله برغبة عقله ، بل كما يقول : (لعـــب الشيطان برأسي) .

وظل ليال لا يهنأ له منام . ومع أن لســـان القـــوم في أحـــايين يقطـــر بالإعجاب .. فالرجال يأخذون حقوقـــــهم بأيديـــهم ، ولا ينتظرون أحدا يمنحهم ، إلا أن ذلك لم يطب له أو يرضيه . لم يقفــل باب بيتـــه في وجه من يقصده لعلاج المكسور ، و لم يحدثه خـــاطره بأخذ قرش من أحد .

كان إذا طافت على الإنسان أيام ، يرى فيها أنه لعبـــة لهـــا .. تسيره في الغالب على غلبها ، يشتري الفاكهة أو بعـــض الأشـــياء، ويدعو زوجته وبنته لزيارة (عزة) وعيالها .

واليوم ..

كان ، برفقته أهله .. يمشون في طريقهم إليها ، فقابلتهم (صالحة بنت أحمد) ، وبعد التحيات وقبلات البنت والزوجة ، ســـألها عـــن قصدها . قالت أنها منذ زمن لم تر فيه (عـــزة) فـــرأت أن تذهـــب لزيارتها ، كما يقولون (الناس للناس) .

وقفوا جانبا من الطريق ، كانت نسائم باردة تلفح أجســـادهم، بلفحات محملة بشمس ما بعد الظهيرة ، فتنوه معها أشجار (الطلـــح والعرعر) فوق ربا تعلو قليلا وتملأ النظر ، جمعت نباتات خضـــراء فاقعة من الحشيش و(الصخبر) .

أما السماء التي تلف بسحابات خفيفة ، فتمنح الظل والبرودة .. فقد ذهبت تقلب في خاطـــر (مرزوق التومي) وقتمـــا لا ينســـاه روى فيه حد جنبيته بدم غريم ، لم يكن ساعتها على وعي .

وأما (صالحة بنت أحمد) فلم تر في قتلة (عامر) أمـــرا يفـــرح صدرها ، بل أنها ردت حين علمت بذبحه ، دون تســـــمية القـــاتل بـــ (الله ، يذبح من ذبح رفيقه) .

ومع أن لسان الناس كان لا يفرط في ذكرها مصحوبة بأفـــاعيل (عامر) .. إلا أنها وقد رأت قلب (عزة) لم تكن لترضى بروح تتلف بحد الســـلاح على هذا النحو ، لكن كما يقولون : (كان من رزاز المحاقر) ، وعليه فقد طردت هلوسات كادت تقترب في صدرهـــا، من كل أمر يتصل به ، وسألت (مرزوق التومي) :

- (توهم .. ما بيطيح) .

كان موسم مجئ مطر (الوسمية) في مثل هذه الأيـــام ، أجابهـــا وهو ينظر إلى السماء :

- (والله ، يا بنت الحلال .. ننتظر رب كريم) .

ومنح بصره مساحات الأرض الخالية من الـــزرع في الـــوادي، وعلى مدرجات الجبال ، فاقتحـــم خاطره طيبة الأرض ، وجمـــال رائحتها بعد المطر ، وكيف أنها عظيمة ، كعظمة الإنسان .. فـــإذا

عُني بها وأكرمها ، أكرمته ، وجزته عن كـــل حبـــة عشـــرة ، وإن أهملها، فلن يأكل من خيرها ، ولن تطعم الخامل خبزا .. (ألا مـــا أعظم الإنسان ، وما أشد قوته ، وعزمه على أحياء مواتهـــا ، ومـــا أقوى رغبته في الحياة . بالأمس بإيمان ساعة تضرب فيها الرقبة الـــتي تحمل رأسا دلته على القتل ، واليوم يشع في صـــدره حـــب الحيـــاة والأرض، ويوعد نفسه بنماء الزرع ، وتمر يجنيه مع الحـــاصدين .. ألا فلتذهب الدنيا بما حملت ، وليبق الإنسان معمراً كـــل اليبـــاب ، وواهب الحيـــاة لكل ميت يموت من نبات فوق وجه الأرض .

تذكر يا مرزوق التومي حديثا سمعته ، لم تنسه ، عن الرســـول صلى الله عليه وسلم حين أوصى .. من كان في يـــده فسـلة، ورأى القيامة تقوم .. فليزرعها).

كانوا يسيرون كقافلة مقطومة في الطريـــق المحـــاذي للجبـــل، يتقدمهم (مرزوق التومي)، عاقدا يديه خلف ظهره ، مانحا عينيـــه ووجهه إلى الطريق ، كأنما يتوقى شيئا لئلا تقع قدمـــاه . صامتـــا لا تتكلم منه حركـــة ، غير خطواته التي تصطك وهو ينقلها برتابـــة، بالحجارة الصغيرة خلفه تمشي زوجته ، وعلى رأسها فوق الشرشـــف

الذي لثم اسفل وجهها وكتفيها وصدرها ، صرة بحجم الرأس ، بها شيء مضغوط تتحدث إلى (صالحة بنت أحمد) تتبعها بصفيق نعاليها البلاستيكيتين .

أما بنت (مرزوق) ، فكانت تمشي بخطوات سريعة قليلا خلف (صالحة) ثم تتوقف على قدر السعلات الجافة ، التي تفزع من حلقها.. ملتفتة إلى الوراء ، جاعلة السعلات في قبضتها ، والطريق المتراقصة في عينيها الدامعتين قليلا .

إذ ذاك .. رفع (مرزوق التومي) رأسه ، ليذهب بصره على مدى الطريق الطويل ، والمستوي عبر أرض مستوية . ردعته أرض لا نبات فيها ولا طير ، بان عليها انسلاخ زرع موسمي.. فدق قلبه في صدره فلزمه ، حتى ليظن الرائي أنه يقول لا ريب ، ضربا على صدره:

(عندي ، وأنا أبو هندي) . سرح :

(هنا يا مرزوق ، في هذه (الغابرة) ، فصلت بين كتفي (عامر) وقتما لعب برأسك الشيطان ، فلبيت تلعب معه .. قطع الله إبليس .

من هذه الطريق عدت لتسلم رقبتك للقاضي ، كنت تنظر إليــها موطئا ، تلصقها بذاكرتك حجرا حجرا ، تـــزور عينيــك بـــالحبل والشجر والطير ، وأصوات الحلال في الوادي ، و كل مـــا يلتهمـــه بصرك .. تقول الوداع يا أرضي المفـــردة من طـــــرف أول دار في القـــريـــة إلى واجهة الجبل ..الوداع يا حب قلبي وغذاء دمي.. يـــا نفس صدري ولثمة قدمي ، فلن أراك أبدا .

نسيت حينها إبهام قدمك تنز بالدم من حجـــر في الطريــــــق . وقتما غنيت بأوسع من فمك (قاتل) ، وأنـــا قتيـــل وبـــاموت .. ومعوض خير فيه) .

قطع خاطره صبي يركب ظهر حمارة بيضاء ، حملت بخــــرج في فتحتيه صرتان كبيرتان ، بدا أن بداخلها طحينا ، وسمع مـــن بعـــد بقبقة متواصلة (وابور الطحين) ما لبثت أن اقتربت رويدا رويـــدا، مخلفة ظهر الصبي وحمارته ، الذي سلم بصوت حاد على (مـــرزوق) ومن كان معه ، متحاشيا ألا يصطدم بهم في الطريق الضيق .

- ٦ -

تسربت أيام من عمر الإنسان ، كما يتسرب الحب من بين الأصابع ، وبقي بياض النهار ، وسواد الليل .. يدوران على الناس من العام إلى العام . بقي (ابن رابح) بأكياسه وسجله وسيارته ، مع الفقيه والسائق ، فقد صحبته من رفيق اسمه (عامر) ، يعرف كيف

يسير دبيب النملة في القرية ، لكنه ما لبث أن قال متفاديا الحجة إلى (عامر) ، أنه تخلص (بقدرة قادر) من واحد ، لم يكن له غير اختراط عمولات كما يقولون (لا ثور له فيها و لا رباط) . (فليذهب إلى حيث أخذه الله ، وليبق لي مالي، وسائقي، والفقيه) .

كان الفقيه الذي يصله نصيبه الكامل من أهل القرية .. يقبض من (ابن رابح) عمولة طيبة ، مقابل معاملات يقدمها له عديدة ، منها أنه قادر على إقناع القوم ببيع أكثر مما يريد صاحب المحصول، ويجمع الحب في بيته ، ويستضيف (ابن رابح) أيام تواجده ، وله على الناس وجه ليس كوجه الغريب.

غير أن صاحبه التاجر . رأى في اصطحابه معه ، ما لم يكن في البال .. قال أنه تعرف على بيوت القرية .. بل أصبح مع الأيام، يعرف التخاطب مع فلان وفلان ، وكم سيشتري من هذا وذاك،

فإذا كان لـــه عند أحد دين ، اخترط منه كما يقولـــون (الصـــاع بصاعين) . أما الفقيه فإنه يعطيه على كل كيس من الحب .. كــــذا من الريالات ، وهذا يساوي قيمة عشرة أكياس .. فكيف لو أنهــــا بقيت في الجيب .. وماذا لو أنه جمع ما عند الناس ، ووضعــــه عنــــد صاحبه التاجر في سوق القرى ؟ ، سيربح به ويفتح له باب بيتــــه .. أنه ليس ببعيد .

جاء (ابن رابح) بأكياسه وسجله ، ودب في القريـــــة بعـــد أن أوقف سيارته التي رآها الناس .. استبطأه الفقيه ، قعـــد وفي قبالتـــه دلــــة القهوة والتمر ينتظر صاحبه التاجر .غير أن التاجر نسي صاحبه ودليله الآمر القادر على إخضاع رؤوس القرية المتعالية .

وقف (ابن رابح) على عتبات الدور ، يكتال الحب ويقيـــد في سجله عدد الكيلات . حينما تأخر على الفقيه صاحبــــه ، وبــــردت قهوته وضلوعه .. انتعل حذاءه وخرج ، سال صبيانا يلعبون حــــول السيارة ، فقالوا انه هناك في ساحة (صالحة بنت أحمد) ، عجــــب كيف يدور دون أن يمر به ، ورأى أن يستطلع ما حــــدث ، حيــــاه فــــرد عليه ردا وافيا .

قال الفقيه :

- (أشوفك .. ما جيت تشرب القهوة ، كيف هذا ؟).

- (ما أمداني يا صاحبي ..) .

تشمم الفقيه رائحة جواب معرض ، فتلك فعلة لم تكن من عادته . نظر إلى السائق وسأله :

- (ايش حصل لعمك ؟ !) .

- (والله ، ما أدري) .

التفت (ابن رابح) إليه وفي يده كيس أخرج فمه من بين قدميه. قال :

- (اسمعني يا صاحب .. أنت ما قصرت معي ، كـــــثر الله خيرك) .

فهم أنه لم يعد بحاجة إليه ، رد وهو يلمحه من رأسه إلى قدميه :

- (على كل حال .. ترى بيتي مفتوح ، في أي وقت).

أعطاه قفاه ومضى إلى داره بخطوات جريئة واسعة . فقعد مع نفسه وذهب مع خاطره ، كيف يتصرف مع هـــذا (النمـــرود) . فكان أن أرسل ولده إلى فلان :

- (يا عم .. أبي ، يقول .. تعال) .

- (خير ، إن شاء الله ؟).

- (أنا ، ما أدري .. أنا مرسول) .

قال الفقيه لفلان :

- (شوف يا فلان ..ترى ابن رابح، يضحك علينا ، يأخذ أرزاقنا ، بثمن رخيص ، يمكن يقيد في سجله ، أشياء ما هي بصحيحة) .

فتح فلان عينيه حتى كادتا تخرجان من محجريها ، فالفقيه كان يفرض قوله على الجماعة ، كي يتجهزوا بالمحصول لبيعه لـ (ابن رابح) ، والآن يحضه على عدم التعامل معه ، قال :

- (عجيب يا فقيهنا .. ايش حصل ؟) .

أجابه ، وهو يخلل بين لحيته :

- (التاجر ، همه تجارته ، وأنا شفت أنه يرابي ، وهذا حرام) .

مد فلان يده إلى فنجان القهوة المتثائب .. رشـف رشفتين، وسأل عقله لماذا سكت الفقيه كل هذه الأعوام ، وهو يعلـم كما يعلمون بأن (ابن رابح) يغشهم ويرابي ، وهو تحت ضغط فقيههم، وحاجتهم إلى المال ، فقدرته على إدانتهم في كل مرة ، تزيـد من تحملهم ، وعدم إظهار التذمر قدامه ، أو قدام الفقيه . قال :

- (ليش ، يا فقيهنا .. ما تقول للجمـاعة في المسجـد ؟).

- (والله ، ما ودي أقول لهـم ، يمكن يظنون فيه) .

ضحك فلان متسائلا هازئا :

- (استغفر الله ، يا فقيهنا .. لا ، لا) .

كان يعلم أن الفقيه لن يفـاتح الجماعـة في جمعتـهم بهـذا القـول، لأنه لا يريد أن يسمع السباب ، فهم يعلمون بما يناله من (ابن رابح) مع ما يحصل منهم من نصيب كل محصـول ، مقـابل فقاهته وإمامته لهم .

لقد رأى أن يبدأ بفلان هذا ، ثم يحـرض عـددا قليـلا ، وفي مناسبات مناسبة ، فلو كشف ما قاله الآن للجماعة في المسـجد ..

لتسمع منهم مالا يرضيه ، وربما رأى فيهم العناد ، وعدم الاتباع، على غير ما تعوده .

استكثر فلان الله الخير في قهوة الفقيه ، التقط مشعابه في يده و .. خرج .

بقي الفقيه يؤرجح خواطره ، يغمض عينيه ، ويخلل لحيته الدائرية الشعثاء ، ثم صاح بولده فجاء وحمل دلة القهوة إلى الداخل.

دخلت زوجته ، فبدت وهي تخطو بخطوات كخطوات النعجة المدجنة ، وبيدها (حجول) فضية ممتلئة ، وخواتم كبيرة بثمار حمراء وزرقاء ، وحلقات نحيفة في إبهامي قدميها ، ومدت يدها إلى مستوى أنفها الطويل المعقوف والمزين ب (خزام) مستدير تخبأت في ثقوبه الدقيقة بقايا سواد .. قالت بصوتها الخارق :

- (ايش بك يا ..مخلوق ، شايل الدنيا ، فوق رأسك؟) .

فتح عينيه المغمضتين اللتين بدتا كأنهما علقتا من سواديهما، برمشي جفنيهما .. قال :

- (اسمعي ، يا مخلوقة .. أدخلي .. ادخلـــي ، حيلـــي

عـــني) .

- (قالت.. أنت دايم ، ما تبغي تسمع صوتي) .

- (تبغين تعرفين ، ايش حصل ، هذا اللي يهمك !!) .

قام إلى عتبة الباب ، انتعل حذاءه ، ومضـــى يجرجـــر قدميـــه، وخلفه واقفة تصفق في راحتيها : (الله بنا ، و بك) .

وقف بساحة دار (أبو عطية) ونادى : (يا .. بو عطية ، يا .. أهل البيت) خرجت امرأة كالصرة المحزومـــة ، ردت : (أهلـــه ، الله.. أدخل) .

أجابها إلى الدخول ، وحين دلف من الباب ، تقـــدم إلى بســـط حمراء ملمومة الحواف ، وعلى طرفها إلى الجـــدار مســـاند برســـوم حمـــراء أيضا كبيرة مشجرة . سألها عن (أبو عطية) . قالت انـــه شد الماطور على ظهر الحمارة وأفلح منذ ساعة إلى واحـــد دعـــاه

ليسقي لــه زرعه . زادت بأنها ستدخل لتعمل لــه إبريق شـــاي، لكنه كثر لها بالخير ، وطلب طاسة ماء . بعد أن غط فمه وشاربيه في فراغ الطاسة الوسيع ، و علق الماء ببراطمه السود المضغوطة ، رفـــع رأسه فتقاطر الماء على لحيته .. قال :

- (يعني .. أبو عطية ، عنده شغل ، و .. بيتأخر ؟) .
- (الغايب .. حجته معه) .
- (طيب ، إذا جاء .. قولي لــه ، أني نشدت عنه) .

نهض متثاقلا كالكيس المعبأ بالحب ، مستأذنا بالخروج .

عندما كان يلفت نظر العيون الصغيرة والكبيرة ، في الطريــق إلى بيته .. صادف واحدا ، فأستوقفه ، وسأله :

- (خـــير ، يافقيهـــنا .. أشوفك مستعجل ؟) .

وقف ، ووقف جانبه الرجل ، الذي مد لــه يـــده مصافحـــا ومتسائلا مرة أخرى .. فأجابه :

- (لا ، والله .. تعايرت مع أم العيال) .

ومضى في ذهنه بعد هــذا الجــواب القصــير ، لــو كشــف ما بداخلــه عن (ابن رابح) ، ونصحه بعــدم بيعــه شــيء مــن

المحصول .. لكنه قال ، هذا مكان ليس للكلام ، وهذا الرجل ممن لا يجد في صدره مستودعا للسر ، فأعرض عن ذلك..و قال :

- (يا رجال، النسوان ، مثلما .. قال صلى الله عليه وسلم : شاوروهن ، وخالفوهن)،

فضحك الرجل ضحكا مجاملا ، وعلق :

- (أيوه .. يا فقيهنا ، ومثلك يعرف ماله، وما عليه) .

سلما وافترقا . وضع قدميه في طرف ساحة بيته ، فألقى دجاجات ينقرن الأرض ، وديكين يفردان ريشيهما ويتهاجمان، التقط حجرا بحجم نواة الخوخ ، وقذف بها الديكين .. فتفرقت الدجاجات ، وتحول الديكان إلى جانب بعيد . تمتم بما يمليه عليه ذهنه :

(ها .. تلقاهم يتضاربون ، علشان دجاجة ، بلاء كل الأنواع من الأنثى) .

كان يعلم أنه لو قال هذا القول ، أمام فلان وفلان ، لوقفا في نحره ، وردا عليه ، بأنه حر مع زوجته وأهله ، لكن قوله ليس حكما

على الكل ، وهذا ما كان يلقاه منهما دائما ، هم وبعض الجماعة .

تمتم : (مجانين ، ولو عرفوا المعنى .. ما جادلوني) .

عندما دخل لبيته ، جاءه ولده من الداخل ، وأخبره بأن (ابن رابح) ملأ سيارته بالحب ، وأنه قد ركبها ، ليمضي .

نظر إليه ، وصاح به (انقلع .. أنا ما نشدتك) .. فخرج الولد جاريا إلى الساحة .

وضع الفقيه عجيزته على أرض المجلس ، فما أحب الجلوس، وكما يقولون : (اللي في بطنه ريح .. ما يستريح) . نهض ولم يطقطق في جسمه مفصل ، دار إلى الباب ، ووهب قدميه الساحة، فالطريق .. إلى حيث لا يعلم . بعد تردد حارت فيه قدماه .. رأى من المناسب أن يعرج إلى (صالحة بنت أحمد) .

بعدما تثاقل في مشيته حين دخل ساحة بيتها ، صاح :

- (.. يا .. صالحة ، بنت أحمد) .

خرج ابنها ، وفي يده قلم ، برأسه المكشوف ، قال :

- (أيوه .. أدخل ، يا فقيه) .

- (بارك الله .. فيك ، أمك في البيت ؟) .

- (أيوه .. أدخل) .

بقي الولد واقفا على الباب ، اقترب الفقيه ، مد له يده مصافحا، وسأله :

- (أنت ، أحمد ؟) .

- (أيوه .. أنا أحمد بن علي السروي) .

- (ما شاء الله ، صرت .. رجال) .

لم يرد .. جرى إلى الداخل ، فخرجت أمه ، ودعت الفقيه للدخول ، خلع نعليه وقعد . كانت (سعيدة) في داخل الغرفة الصغيرة المفتوحة الباب ، التي تتخذها (صالحة) مناما لها ولعيالها، وهي الوحيدة المتفرعة عن الكبيرة ، التي يقعد فيها الضيوف ، وبها المشب . لم تخرج ، فهذا صوت رجل ، وليس من المناسب لواحدة بلغت السادسة عشرة ، أن تقعد إذا جاء رجل . لقد عرفت هذا الصوت الذي لا يخفى على أحد . إذا لماذا لا تخرج إليه ، إنه في مثل عمر أبيها ، لكن لماذا .. أمن أجل أن تسلم عليه ، فليقعد

كـــالهضبة ، لقد جاء ليتحدث إلى ، أمها ، تحدث الفقيه ، بعد مـــا شرب القهوة .. قال :

- (أسمعي يا .. بنــت الرجـــال ، أنـــي شـــفتي أبـــن رابح.. كيف ظلمك ، ذاك اليوم ، هذا تـــاجر ظـــالم .. لا تبيعينـــه محصولك) .

كانت تلتقط كلماته ، وتذهب في خـــاطر متقطـــع ، فمـــا أن مـــات (عامر) حتى خرج لـــه وريث ، وهذا الفقيه ..جاء بنبأ من سبأ لأجل هذا القول ، يوم أن كنت أحتاج إليه ، وقت إذ قـــال إن شهادة الحرمة ناقصة . قالت وعيناها مصوبتان إلى لحيته الدائرية :

- (أيوه .. أيوه ، ابن رابح ، ظالم ، لكن ..ما سمعـــــت هذا الكلام منك ، إلا ذا الحين ، يا فقيهنا) .

- (ما كنت .. أبغي أسوي ، مشاكل) .

- (.. يعني ، كنت تدري ، وما قلت الحق) .

- (استغفر الله .. ابن آدم ، مخلوق وكله غلط) .

لمت فناجين قهوهما ، وذهبت في رد طويل ، مفاده أنها لن تخرج عن رأي الجماعة ، فإن قطعوا البيع عن (ابن رابـــح) .. قطعتــه، وسألها :

- (.. وإن كان أنـــا ، رأس الجماعة .. قطعت ؟).

- (إذا .. قطعوا معك الجماعـــة .. قطعت) .

لم تسأله عما حدث بينه وبين (ابن رابح) ، فوقف كالمحموم متجها إلى الباب ، دون كلمة .

كان الناس يحوشون حلالهم ، ودواجنهم إلى المبيت ، فتحاشـــى مع ضجيجهم وانشغالهم كيلا يتكلم مع أحد في الطريـــق . دخـــل بيتـــه عامدا جبته الصوفية العريضة ، ودفن فيـــها جســـده ، إلى أن مضى وقت .. جاءت زوجته توقظه ، فـــالمؤذن يـــؤذن للمغـــرب، والجماعة سينتظرونه ليصلي بهم ، فقـــام دون أن يكلمـــها ، بعـــد (تكبيرة الإحـــرام) شك في أنه لم يكن على وضوء .. لكنه لعـــن الشيطان ، وأكمل بهم صلاته .

قضى الفقيه شطرا من الأيام ، تصول بصدره الحســـرات ، حـــتى لتكاد تأكل أضلعه ، فـــ (عامر) الصديق في المســـجد والطريـــق .. ذهب إلى الأبد والصاحب التاجر (ابن رابح) ، باعه مثلمـــا يبيـــع كيس الحنطة ، وجماعته يقولون لـــه ما لا يضمرون ، وهو لا يخفـــى عليه أنهم لا يكرهون لـــه الضرر ، حتى (صالحة بنت أحمد) تلـــك التي شكت من غش (ابن رابح) لم تفتح لـــه قلبها . (فماذا أنـــت صانع .. يا قليل الحيلة والسند ؟) .

حدث خاطره من كل الجوانب ، ولم يحدثـــها بأفعـــال كـــان يزحلقها لخدمة نفسه .

واليوم . .

بعدما قضى بجماعته الخطبة والصلاة .. طلب منـــهم الانتظـــار لكلمة سوف يعلنها ، توقفوا بعد (ركعـــتي الســـنة) في ســـاحة المسجـــد ، خرج إليهم ، فاستغفر الله بصوت مسموع ، قال أنـــه يحذرهم من التاجر المرابي الغشاش (ابن رابح) وعليه فإن من الواجـــب عليهـــم ، قطع معاملته ، والامتناع عن بيع المحصول له .

تلفت الناس إلى بعضهم .. قال واحد ، وكان قد شـــكى مـــن (ابن رابح) إليه ، يوم أن رأى منه ما رأى ، أنه ســـكت (دهـــرا،

ونطق كفرا) كما يقولون ..فما الذي يجعله يكشف لهم الأمر الآن، فلو كان حريصا على جماعته . لمنعهم منذ زمن طويل .

وتقاطرت ألسنة الناس (بالقيل والقال) وقف رجل ، وقال لعلك يا فقيهنا رأيت من (ابن رابح) مالا يعجبك ، وتريد أن تتخذ منا سلاحا عليه ، وبالشتم والسباب ، دعى على الفقيه ، وعلى التاجر (ابن رابح) ، وقال لولا أن ذكر الميت بغث الكلام من الحرام .. لقلت لا رحم الله (عامر) ثالثكم على الجماعة ، وعلى (بنت أحمد) . أعقب دعواته بطلب الجماعة أن يقولوا فيه (آمين) فقالوا جميعهم (آ آ آ . . . مين) .

حينها ، وبعد صمت قصير .. اشترك فيه المصلون ، شق الفقيه الساحة ، إلى داره .

قال واحد من المتعلمين الذين يعملون بالمدرسة ، يا جماعة الخير، لا تتشاتموا .. هذا من فعل جهال السن ، تعالوا نجتمع في دار أحدنا ، وننظر إلى الأمر ، فهذا مكان صلاة .

لم يرد عليه أحد ، بل التقط كل واحد منهم مشعابه .. وغادر يهمهم .

أصبح صبح جديد ، وخرج القوم إلى أعمالهم .

بقي الفقيه نائما حتى بعد إشراقة الشمس ، بل أنه تمدد في نومه عنوة .. وقال لثقله المترامي ، سأتركهم بلا فقاهة اليوم ، فليصلوا فجر هذا اليوم فرادى بلا إمام .

غير أن ذلك المتعلم ، تقدم بهم وصلى الفجر ، بعد أن انتظروا فقيههم وقتا.

أما هو فبعدما حشى معدته بإفطار القهوة ، ومن قبلها اللبن والسمن والخبز والتمر ، تقلد لباسا نظيفا ، ومنح عجيزته لظهر حمارته ، وساقها نحو مركز الحكومة في السوق ، قاصدا مدير الهيئة المعنية بأمور المسلمين والمساجد ، فأمضى إليه بعلم نكير ، قال وهو يسبحل ويحوقل ، أن قلبه ولسانه تعبا من جماعته فهم يسمعون الآذان ولا يجيبون ، وحين تأتي جمعة الأسبوع ، التي يجب أن يصليها الصغير والكبير .. لا يحضرها خلفه إلا نفر قليل ، وبعض أولاد المدرسة . استغفر الله كثيرا وزاد بأن المنكر يزال بثلاث ، وجاء يشهد على قلبه ولسانه ، ولم يقدر على مد يده على أحد.

سأله المدير عما إذا كان يستطيع إحضار شاهدين يكونان ممن يصلون خلفه ، رد بصوت ثاقب ، سمعه حتى الواقفون خارج

البـاب ، بأنه ربما لا يقدر على هذا .. فهم يخافون مـن باقـي الجماعة الكثيرين ، وعلى أي حال .. كان ، فإنه خلـص ضميره وكفى، أمـا الباقي فهو ليس بعليه . فإن بقي جماعته هكـذا .. لا يحضرون الصـلاة ، ولا يسمعون قوله ودعوته لهم للصلاة خلفـه .. فإنه لا يرغب في تحمل ذنوبهم ، لأنه يحصل مقابل عملـه منـهم ، نصيبا من كـل محصـول .

قال المدير متسائلا بالعربية الفصيحة التي يجهد للنطق بها :

(نعم .. ليعطوك ، هذا من عندهم .. لكنك تأخذ من الحكومـة، راتب إمام مسجد .. جماعتك ، ألا يدرون ؟) .

كان المدير، يعلم أن الجماعة لا يدرون ، وربما تم هـذا بتدبـير منـه مع الفقيه إذ جاء إليه في يوم قديم مضى ، وسمع بأذنيه منـهم، قبولهم له إماما وفقيها . فكان الفقيه .. في ذيل كل شـهر، يدخـل عليه مسلما ، ويقبض مرتبه .

ولو علم أهل القرية بذلك ، لمنعوا عنه محاصيلهم، نصيبـا كـانوا يحضرونه في كل موسم ،على رؤوسهم ، إلى بيته، يأخذ من الربـع،

ويعيد خلط الحب ببعضه ، وتعبئته وتجهيزه كما يقولون عنه (الخراصة) أو (عمال الدولة) ، الذين يجيئون في كل صيف يأخذونها من بيته ، فيقوم باستضافتهم وإكرامهم .

وعلى أي جانب أتت ..

فالفقيه الذي أدخل أولاده المدارس البعيدة ، منذ أن كانت القرية بلا مدرسة ، وتخرجوا منها ، وعملوا في المدينة ، ثم سافروا إلى شرق البلاد ، ليعملوا مع الأمريكان في شركة البترول .. كان يلم مالا جعله من الأغنياء ، إلا أنه يقول و هو في حضرة من يحدثهم (ابن آدم.. ما يقنعه ، غير التراب) .

* * *

بعد أن قضى الفقيه مع المدير وقتا ، كثر فيه القيل والقال .. أخبره بضرورة زيارته والتأكد مما يقول في الجمعة الآتية . فسأل الفقيه وعيناه تكادان تنطان .

- (يعني .. ما تصدقني ، يا مدير ؟) .

- (بلى ، ولكن ، ليطمئن قلبي) .

أطلق قدميه في السوق ، ولم برياالات لم يكن ليرضى خروجـها من الجيب ، حوائج لا يشتريها إلا صاحب المال ، ملأ بها خرج حمارته ، وعاد إلى بيته . كان خاطره يجاذب قولا قاله المدير ، لم يعجبه لا من قريب ولا من بعيد ، عن مجيئه إلى القرية يوم صلاة الجمعة ، لكنه كما يقولون (بغى يكحلها .. فأعماها) .

قضت أيام الأسبوع عدها ، وقضاها الفقيه في غياب وحضور للصلاة بالناس ، فيقضي ركعاته ويمضي إلى بيته .. لا يجمعه بالجماعة إلا (سلام عليكم ، وعليكم السلام) ، ولم يحدث أن فتح معهم بابا للحديث ، بل كان يحاذر إلا يهيئ فرصة لأي كلام .

ودخلتِ الجمعة ، فجاء في وقته . خطب الخطبتين ، وصلى بالجماعة الذين لم يغب منهم إلا المريض ، أو العاجز ، أو صاحب مانع منعه من الحضور . فكان المسجد معمرا بالناس .

دخل المدير المسجد مع الفقيه ، فلمحته كل العيون ، وقضى صلاته مع المصلي ن، وقال الفقيه لهم ، أنه يريدهم في كلام .. وحين قعد الناس ينتظرون خروجه في ساحة المسجد..خرج وخلفه المدير الذي سلم عليهم بصوته المسموع ، وقال :

- (يا عباد الله .. جانا من يشتكي منكـم .. يقـول ، إنكم تقطعون الصلاة وتسـمعون الآذان، ولا .. تلبونـه ايـش تقولون ؟) .

تطلع الناس بعضهم في وجه بعض ، وتوالت الأصوات :

- (من .. هو اللـي اشـتكى ؟) ، (هـذا، مفـرق الجماعات) أنت ، شفت بعينيك ..كلنا صلينا، معك) .

احتاروا قليلا فيمن يكون ، وقـال البعض لخاطره ، ليس هنـلك معـاد للجماعة، غير الفقيه .. ربما كان هو الذي جاء به .

قال واحد :

- (يا جماعة الخير.. اللي راح .. يشتكي للحكومـة ، يقول ، وإلا فهو كذاب .. لأنه خائن) .

لم يرد أحد ، و لم يخبرهم المدير ، فذلك شأن مـــن أســراره .

كــان الفقيه يقعد إلى جانبه ، يخلل لحيته ، ويوزع بصـــره هنـــا، وهناك ، وقال :

- (اسمعوا ، يا جماعة الخير .. اليوم ، من هم اللي غــابوا عن الجمعة ؟) .

تلفتوا ، فوجدوا أن (مرزوق التومي) ، وشخصين آخريـــن لم يحضرا . قال واحد كان يضع قبضتا يده علـــى عقـــف مشـــعابه، ليرتكز عليه ، أن (مرزوق التومي) لم يحضـــر ، وكذلـــك فـــلان و فلان .

قال آخـــر كان يجلـــس في الواجهـــة المقابلـــة ، أن فلانا، وفلانا سافــرا منذ يومين ، أما (مرزوق التومي) فقـــد رآه في الوادي خلف المحراث .

رأى المدير والفقيه ، أن يرسلا من يأتي به (في الساع) كمـــا يقولون .

وبعد وقت قضاه الجميع في اختلاط الأصوات ، جاء (مـــرزوق التومي) ، وفوقه ثياب بلون عفر التراب .. سلم على الكل ، وقعد .

كان يظن في خاطره ، أن هناك أمرا بلغ من الأهمية مكانا ، ربما كان من أثر ما وقع مع (عامر) وقتلته .

بادر الفقيه بلهجة قوية :

- (ليش ، ما تجي تصلي ، يا تارك .. فرض الله ؟) .

لم يجب عليه ، بل التفت شمالا و يمينا ، فرأى مكانا لائقا قعد فيه . كان الصمت يفيض بساحة المسجد ، بل بانتظار جوابه ، أو بأي شيء آخر ، ورفع صوته المدير :

- (ما تسمع .. يا ناقص العقل .. يا قليل الدين ؟) .

كان المكان الذي قعد فيه (مرزوق التومي) ، بجانب المدير والفقيه . . فالتفت إليهما بعينين حمراوين من أثر حراثة الأرض ، وفي تلك الهنيهة التي كان صمت الجميع يغيب كل همسة ، مع خاطره (والله ، إنكما ناقصي الحياء أمام القاعدين ، كيف تدعونني من فوق محراثي ، إلى ساحة المسجد . لتلفظا بقول لا يذكره الجهال . أتعنيان ، وأنا طويل الذراع والشوارب .. أنني كالمرأة .. لا بل أن بعض المقولات ليست منصفة . فهل عقل ودين في واحدة كبنت أحمد ، يدفعنا لأن نصب السباب على أحد . لا والله،

أنها لا تفعل مثلما تفعلان . ويحاه .. عليك يا بو رزق ، أهانوك قدام جماعتك ، وأنت ما يقف في طريقك ريح) .

وضع يده ذات الأصابع المتورمة ، ليتلمس عقاله ، فالآن حان وقت يهوي به ، كما يهوي بـ (العرقة) في ظهور الحلال . لكنه وبصمت أعاد يده إلى جنبه .. لقد كان يعمل خلف الثيران ، و لم يهتم بوضع العقال على رأسه . لكن (أينك يا مرزوق ، هل نسيت الحبس والليل والانتظار وعذاب الانزواء عن الأهل والبلد .. ضع عقلك في رأسك ، وحاورهما بالتي هي أحسن ، وألا ..) .

أجاب بصوت خشن ، بان أنه يضغط على (نفرة سبع) في دمه :

- (عندي شغل ، في الوادي .. وما أمداني ، والله يحب المحسنين) .

قال الفقيه كالواثق :

- (يعني .. سمعت الآذان ، وما جيت) .

لم يرد ، وبقي الصمت يتفسح ، ويطفر من عيون القاعدين .

قام المدير ، ونهض معه الفقيه ، تقدما نحوه ، ومد المدير يده السمراء الملساء ، بأصابعه النحيلة ..جذب عمامة (مرزوق) من فوق رأسه ، وهو يقول بكل حنجرته :

- (جزاك ، يا تارك الفرض بالقصد .. نحرق عمامتك) .

كتم البعض ضحكته في بلعومه ، وأطلقها البعض مع حياء وخوف . كان الفقيه يقف خلف المدير ، وينظر إلى (مرزوق التومي) نظرة عابرة ، ثم يتلفت إلى القاعدين ، دون أن تعلن شفتاه المنفرجتان عن شيء . أما (مرزوق) الذي ظهر رأسه نصف النابت بالبياض ، وأذناه الشبيهتان بكفي الطفل ، فقد بقي يحدق في المدير والفقيه ، وهما يتراجعان إلى الخلف أقل من خطوة ، ثم مد يده كالسهم ، وأمسك بثوب المدير من جيب صدره ..جذبه نحوه، كما يجذب الخروف من قرنه ، حتى أنه كاد أن يصطدم به ، ويسقط على ظهره ، وأخذ من يده العمامة ، كما يأخذ منديلا صغيرا سرقه طفل ، وحيث أن الفقيه كان يقف بجانب المدير ، فقد جاء ذيل العمامة المخطوفة بيد (مرزوق) على وجهه ولحيته .. فاختمشت عيناه فأغمضهما وقتا ، وهو يفركهما بقفا يده .

ثم . .

استدار دون أن يضع العمامة على رأسه ، ومضى بمشية رتيبة واسعة ، مخلفا وراءه ، المدير والفقيه ، وقد وقف حولهما بعض القاعدين ، وبعثرت الأصوات التي علت قليل ا، ذلك الصمت العميق.

* * *

أضاعت فعلة (مرزوق التومي) تلك ، ما كان في صدور الجماعة ، من سؤال عمن اشتكاهم إلى الحكومة ، لكنها لم تقتل السؤال ، وبقي الجواب موجها إصبعه إلى الفقيه .

وذات يوم لم يكن بعيدا .. جاء نفران مسلحان بالبنادق والمشاعيب ، فترلا بعد السؤال في بيت الفقيه ، ثم خرجا معه والعيون تتبعهم إلى بيت (مرزوق التومي) فوجداه يجز الصوف عن غنمه، بسكين كبيرة حادة ، فيما تساعدانه في مسك الأغنام زوجته وبنته

صاح الفقيه من طرف ساحة البيت باسمه كاملا ، فالتفت إليه، وقال كلمات الإذن والسلام .

تقدم أحد المسلحين ، ودفعه في صدره بالمشعـــاب ، أمام بنته وزوجته التي رفعت صوتها (يا شق بطنك .. يا شريفه) .

لم يلتفت إليها أحد منهم ، بل تقدم زميله ، والفقيـــه واقـــف كجذع الشجرة العريض المخشب ، وأمسك بـــ (مرزوق) مــــن ذراعه قائلا :

- (هيا .. قم ، يا بو الفعـــايل .. بـــاين عليـــك ، في رأســـك حب ما طحن) .

لم يتكلم .. بل ناول بنته سكينة ، ومضى معهم ، مخلفا ولولـــة زوجته ودموع بنته ، التي لم ير مثلها إلا يوم أن غادر الدار ، يــــوم ذبحه لـــ (عامر) .

سحب ذراعـــه من يد الرجل المسلح ، والتفت إلى زوجته بعـــد خطوات ، وقال بصوت قوي :

- (أدخلي يا.. مخلوقة ، لا تصيحين) .

كانت السيارة الحمراء ذات الحوض المكشوف .. تقف قــــرب بيت الفقيه ، وحولها صبيان يتفرجون ، ويسخرون من بعضـــــهم في مرايا أبوابها الجانبية .

كان الناس يراقبون السيارة ، من عتبات بيوتهم ونوافذهـــــم، ورأوا الفقيه ورجلين مسلحين ، يقـــودان (مـــرزوق) ، ويحلانــه ليقعداه بينهما ، هرهرت السيارة ملء الأذان ، وانطلقــــت معقبــة الغبار ورائحة البترين المحترق .

أما الفقيه فراح يجرجر جسمه الثقيل ، متجها إلى داره ، دون أن يلتفت إلى أحد . لقد كانوا .. كــــل الواقفيــــن مـــن النســـاء، والرجـــال ، والأطفـــال ، يعلمون علمـــا مفصـــلا عمـــا فعلــه (مرزوق) قبل أيام في المسجد ، بعـــد صـــلاة الجمعـــة ، وهـــذان المســـلحان من (طرف الحكومة) .. جاءا ليأخذاه ، ، و .. الفقيــه كأنما وضعها بيده ، كما يقولون ..

* * *

أهل القرية جماعة ، يصلون خلف فقيههم ، واليوم أصبح البعض لا يصلون وراء من يشتكي جماعته ويدل إليـهم الشـر ، وتبعـهم أعـداد آخرون ، أما البعض فقالوا ما لنا وله.. نصلـي خلفـه، الأجر مـن الله ، وهو المطلع على سرائر الصدور.

لم يطرأ على الفقيه حين رأى تخلف الكثيرين عن الصلاة خلفه.. أن يذهب إلى المدير ليشتكيهم . وذات مرة قابلـه عنـوة أحدهـم وسأله:

- (ليش ، ما تشتكينا عند صـاحبك المديـر، يـا .. فقيهنا؟) .

لم يرد عليه الفقيه ، لحه بملء عينيه ومضى في طريقه .

بعدما انقضى من الجمعـة إلى الجمعـة ، حضـر الجميـع للصلاة خلف الفقيه ، فاغتبط صدره ، وقال لخاطره .. لعلهم تـابوا واهتدوا خلفي .

وخلفما انقضت الصلاة ، وخرجوا إلى ساحة المسجد .. قـــال واحد كبير ، يعرف الفقيه كيف كان واقفا ضد الطرق المتشعبة :

- (يا جماعة الخير .. ايش تقولون ، في فقيهنا ؟) .

رد واحد وهو يرفع يده :

- (اللي .. يشتكي جماعته ، مـــا هو منهم) .

تناسجت الأصوات ، وكأنما كانت تحتشد في صـــدر واحـــد، مطالبة الفقيه بالجلوس (في مجلس الرجال) ، بعد صمت طويـــل و لم يدعهم للأخذ والعطاء معه .

وافق على أن يجتمعوا في بيته ، فامتلأ المجلـــس مـــن طرفـــه إلى طرفـــه ، وافترشت مقدمة من الساحة أحذيتهم المختلطـــة ، الـــتي تراكب بعضها فوق بعض ، في وجه الداخل وعن يمينه وشماله .

كان مجلس الفقيه الذي يحتـــــل نصـــف حـــدود البيـــت، يستقبـــــل فيه الضيوف ، وكما يقولون (يسع قبيلة) .

لقد كان مجلسا مريحا ناعما لكل من يجلس عليه ، وعليه تنـــاقش الفقيه مع الجماعة ، بل قل ناقشوه نقاش الحصار :

- (يا فقيهنا .. أنت ، رحت تشتكينا وتقول ، إنا ما نصلي معك .. دفنت رأسك ، يوم جاء معك المدير ، فكرت في نفسك ، ونسيتنا، لأننا .. ما تبعناك في مقاطعة ابن رابح ، آخرها، سلمت مرزوق التومي لعمال الحكومة .. اللي جو ببنادقهم على واحد منا ، وأخذوه من بين أهله .

أنت مرات ، تصلي بنا ، ومرات .. ترقد في بيتك .. ايش تقول ؟ ! .

كان الفقيه يطوف بعينيه . خلل لحيته الدائرية الشعثاء ، وقال :

- (اسمعوا يا .. جماعة الخير ، إذا ما كنتم معي .. فأنا، ما أنا معكم) .

استوى واحد متربعا .. قال :

- (نسيت يا .. فقيه ، انك تقول في الخطبة ،على المنبر، من شذ عن الجماعة .. شذ في النار) .

قال آخر ، وهو يهيئ فمه المفتوح للقول :

- (يعجبك ، يا .. فقيه ، أن مــــرزوق التومــي ، في الحبس أخذوه من وسط عياله) .

سأل واحد ، والرذاذ ينط من فمه :

- (أنت يا .. فقيه ، رحت تشتكينا، وأنت ما تحضــــر للصلاة) .

احتقن وجه الفقيه ، وبلع ريق بلاعمه مرات ، وقال :

- (أشوفكم .. كلكم برأي واحد ، على فقيهكم) .

كان يحب منه في مثل هذه الحال ، كما يعــــرف ، ويتعــارف عليــه القوم .. إذا ما أصبح رأي الكل على الفرد ، بعــــد أن يتــم الأخذ والعطاء ، والدفاع عن النفس ، وحيث يحط الحق على مــــن يتقاضى مثل موقفه .. أن يرد كما يرد المعترف بالحق ، يطلب العفــو من جماعته ، ويعلن التوبة قدامهم : (حقكم ، على عيني ورأســـي، ولو على واحد .. من أولادي) . وقتها ســـيرضى الجميــع ، وتم العفــو والصلح .

غير أن الفقيه بقي يطوح بهم ، ويرد ردودا تصب في طريق عاثر ، لا يوصل إلى المصلحة ، مما دعا أكابر الجماعة ، إلى فض المجلس . لموا مشاعيبهم ، وانتعلوا أحذيتهم ومضوا .

* * *

قضت أيام ، وتعاقدوا في شور شاروا به على بعضهم، فذهب نفر من أكبرهم في السن والمعرفة .. إلى مدير الهيئة ، طالبين منه إقالة الفقيه ، ووضع واحد منهم ، يختارونه ليؤمهم ويصلي بهم، بعيدا عن مشاكل تشغلهم عن أشغالهم ، وعن الفقيه الذي توارث الفقاهة أبا عن جد ، وقالوا.. أن جيلا سبق ، كان فيه الحصول على من يفك الحرف ، ويقرأ القرآن والخطبة .. قد ولى أغلبه.. أما اليوم فما أكثرهم .

وعليه فلو تقدم بالصلاة ، أو بقراءة الخطبة .. فإنهم سوف يرغمونه باليد القوية ليذهب إلى بيته ، أو ليبقى مثله مثل الآخرين .

قلبهم ببصره .. خمسة رجال أصغرهم واحد أكبر منه في العمـر قليلا ، ووجوههم لا يخلوا أحدها من بياض الوقار ، لكنـهم مـن جماعة رفيقهم (مرزوق التومي) ، ذاك الذي لا تزال قبضة يـده في صدري ، أمامهم جميعا في مسجدهم .. لم يقـف جـانبي غـير الفقيـه، قال بصوته الأمرد لا تحار فيه الأذن مهما غاب :

- (شوفوا .. يا عباد الله ، أنتم ناس ما ينفع معكـم إلا المشعاب) .

تلفت بعضهم في وجه بعض ، (يا عيباه ..) نحن في مثل سـن أبيه ، جئناه نطرح حلا ، ونرغب في بتر المشـكلة مـن جذرهـا، و يجيبنا بأن جزاءنا العصا !

رد واحد ، مرافقا كلامه بحركة هادئة من يده :

- (يا .. طويل العمر ، فقيهنا ، إذا مـا كـان كـل الجماعة .. راضين به ، ما بيصلون وراءه ، بيروحون يـدورون، عن واحد متعلم غيره ، من القرية ، و . .) .

قاطعة قائلا :

- (.. لا ، لا، لا واحد ولا ثاني .أنتم، ما يصلح لكم غير فقيهكم..) .

توقف غمضة ، ثم واصل قوله : (وبعدين أنتم ، تقولون ، لو أن الفقيه صلى بكم ، فإنكم بتمدون عليه أيديكم ! يعني ، اعترفتم قدامي .. بأنكم ناوين تتعدون .. هيا ، قوموا ، قبلما أوديكم الحبس مع رفيقكم) .

بعد وقت غابت فيه اللقمة من الفم إلى البطن ، وهبوا أقدامهم للطريق ليخبروا الجماعة بما جرى معه .

كان الفقيه يجرجر خطواته الثقيلة من بعيد ، ويحوم حول مكتب المدير ، منتظرا خروجهم من عنده ، دون أن يلمحوه، و .. دخل :

- (بشر يا .. مدير ، ايش حصل معهم ؟) .

- (كل خير .. أقعد) .

مات ميت ، فجاء من يأخذ النعش الذي يوضع كالعـادة ، في مدخل جانبي بالمسجد .. فما وجده ، قال الصبيـان أنهـم رأوه في ساحة بيت الفقيه .. عندما ذهبوا إلى دار الفقيه لم يجدوه ، فـأخذوا النعش ومضوا صلوا صلاة الميت خلف ذاك المتعلم ، الذي يعمـل في المدرسة ، و لم يحضر الفقيه ميتهم . فزاد ذلك من شحنهم عليه .

وفي ثلاثة العزاء ، كان المتعلم هو الذي يقرأ ويحدث . وحـين تأتي جمعة الأسبوع ، يجئ الفقيه فيخطب ويصلي ، ولا يكلمـهم في شيء خلافه أو يكلموه . قالوا ، هذه صلاة جمعة لها حرمتـها .. لم نحضر لنتشاجر معه .

واليوم . .

اجتهد الخلق في حصد محاصيلهم ، ودار وقـت وجبـت فيـه الزكاة، وسيأتي (خراصة الدولة) بعد يوم أو يومـين ، يـأخذون الحب كالعادة من بيت الفقيه . وعلى الناس لمة زكواتهـم عنـده، يأخذ .. منها الربع ، ويعطي جباها ما تبقى .

غير أن الذي وقف عليه شور الجماعة ، كان مخالفا لما جرت عليه العادة ، فكلهم لا يرتضون بالفقيه إماماً وفقيهاً عليهم . فكيف يرضون به في أمور أخرى . قالوا نجمع زكواتنا في بيت فلان ، ذلك الرجل الكبير في السن والمعرفة ،

والذي لا يخشى في الحق أحدا ، وقلبه ويده مع الجماعة .. فكان لهم . ولم يحن الوقت من الفقيه ليستطلع ما فعلوا ، فقد دق بابه (الخراصة) فاستضافهم ، وأرسل ابنه في (ثمة) كل باب لينبئهم ويستعجلهم .

دخل الرجل الكبير بيت الفقيه ، وقال أن الجماعة قد جمعوا الزكاة في بيته فإن أرادوها .. فليأخذوها من هناك .

تطلع إليه الفقيه بعينين ناضرتين ، وبلع ريقه دون كلام .

أما التاجر (ابن رابح) . فقد جاء بأكياسه وسجلاته بعد أيام، وراح يدور على البيوت ، ويكتال . لم يلتفت إلى الفقيه ، ولم يستطع الفقيه أن يمنعه ، أو يمنع الجماعة من بيعه . وعندما هرهرت سيارته مثقلة بالحب ، وقف الفقيه على طرف ساحة بيته . ليلمحه بقلب، لو فتح لأدمى الأصابع بأشواكه ، وسواد دمه .. بصم شفتيه السوداوين ، على همهمات مختلطة كالهمس العالي .

ثم . .

أتى على المرء بياض النهار وسواد الليل ، فسرى إلى الفقيـــه ذات ليلة مقمرة اثنان من الجماعة . وخلوا بمجلسه ، فقابلهم مقابلة لا تبين عن ارتياح ، قالوا :

- (العلم خير يا .. فقيه ، تـــرى أنـــت منعـــزل عـــن جمـــاعتك .. ايش تعطينا ، ونردهم ؟) .

نظر إليهما ، وبلع ريقا سهلا ، وسأل :

- (كيف ؟) .

- (نقول للجماعة ، في ساحة المسجد .. انك توســطت لهم ، عند المدير .. علشان ما يرسل عمال الحكومـــة ، ويقبضـــون عليهم ، ويحبسونهم) .

- (.. ومتى ، كانوا بيحبسونهم ؟) .

- (ما تدري .. انهم ، راحوا يطالبون بعزلك ؟) .

سمر نظرة في وجه محدثه ، وقال :

- (آها .. يعني ، ناوين يبعدوني ..)

لم يكن غائبا عليه ما فعلوه ، لكنه كان يود أن يحـتزم بعـدد منهم، ليقف على قدميه . فراح يفتح لهم صدره ، ويمنيهم بالمناني .

في ساحة المسجد .. قال أحدهما :

- (يا جماعة الخير ..نحن ، غلطنا مـع فقيـهنا ، اللـي لولاه.. لكنتم في الحبس من زمان .. انتم ما تدرون ، أنه توسط لكم عند المدير ، يوم رحتم تشتكون ؟) .

رد أكبر الجماعة ، فقال ، وهو يسخر :

- (ما شاء الله يا . . أخي ، وليش ساكت ، مـن ذاك اليوم ؟) .

أجاب :

- (... لأنكم ، قمتم ، كلكم على الفقيه، وما أمـداه يتكلم) .

تلفت الناس في بعضهم ، مدركين أن هناك ملعوبا ، لعبه الفقيـه مع المتحدث . قال الذي رافقه واتفق معه ومع الفقيه .. مؤيدا :

- (. . أيو الله .. صحيح) .

قال واحد كان يقعد في واجهة الفقيه :

- (.. سمعنا يا .. فقيه ، نحن ، ندري ، من يـوم رحنـا نشتكي .. أنك تأخذ من نصيبك من الحب، وتروح ، تستلم راتـب من الحكومة .. ترى ، ما فيه شيء مخفي) .

أضاف آخر :

- (علشان كذه ، ما تستحق منا شيء، أفلحنـا نجمـع الزكاة ، في بيت فلان)

صعق الفقيه ، واهتز نبضه ، وأحمض اللعاب في شدقيه ، وقال :

- (أيش عليكم مني.! . هـذا مـن الحكومـة) .

كان يتكلم وبراطمه تنفح بالرذاذ ، والحروف تخرج مدعوكة شديدة .

قال كبيرهم :

- (كيف ؟ تأخذ من محصولنا ، وتأخذ من الحكومة ؟)

أضاف بعد أن تناثرت الأصوات :

- (شوفوا يا .. جماعة الخير .. بعد ترضون بالفقيه ؟) .

أجابوا بصوت واحد : (لا ، والله .. ولا نصلي وراه) .

كان على الفقيه أن يتأبط كتاب خطبة ، ويلزم طريقا يعرفها إلى بيته ، وإلا فإن جسمه الثقيل لن يستطيع حمل كرشه بعد اليوم .

ملأ بصره بالقاعدين من طرفهم إلى طرفهم ، كان فمه مفتوحا ، ويداه تشدان على قبضتها .

أما خطواته ، فكانت كثور حملت به قوائمه ، بعد عمل استخلص كل قواه .

- ٧ -

عندما كان (ابن رابح) في مجيئه الأخير إلى القرية ، يمر بأبواب البيوت ليكتال المحاصيل ، لمح وهو واقف بأكياسه وسجله .. على عتبة بيت (صالحة بنت أحمد) فتاة تنضح بالجمال والأنوثة ، فسأل (صالحة) عمن تكون .

قالت بالصوت الخفيض ، أنها بنتها (سـعيدة) مـط لسـانه، وقال:

- (ايش رأيك .. يا بنت الرجال ؟) .

وسألته (صالحة بنت أحمد) ، وهو يعلم كما تعلـم ، أنـه لا شيء بينهما ، بل أنها بعد أن يكتال منها محصولها .. لا تسـلمه إلا بعد حين ، على مشهد من أحد الجماعة :

- (في .. أيش رأيي ، يا بن رابح ؟) .

- (أقول .. لو تزوجيني ، سعيدة) .

حدقت في فمه المفتوح ، بعينين مزممتـين مندهشـتين ، فـهي تـدري كما يدري الناس ، من الأقاويل المتداولة ، أن هذا التـاجر الغريب عن القريـة ، الذي يجئ كل عام من قبيلـة بعيـدة ، لا تعرف إلا اسمها .. متزوج من زوجتين ، ويرغب في المزيد ، يملـك أولاده أمواله ، وديونه على الناس ، يود لو أن لديه قبيلة من الأولاد.

قالت :

- (طيعيني .. أنا بأبسطها ، وأريحها) .

- (قلت لك .. شوف طريقك) .

- (والله ، ما تندمي ، لو زوجتيني بنتك).

- (ما تستحي .. أنت في عمر أبوها، وعندك حرمتين ، يا ظالم)

لم تكن (سعيدة) لتسمع ما كان بين أمها و (ابن رابح)، فقد كانت في الداخل بعيدا عن النظر ، تقطع بقايا النهار مع أمها وأخيها الذي زادت مطالبه ومتابعاته ، فهو يحب أن يخرج كثيرا للعب الكرة مع رفقائه .. تاركا أمه خائفة عليه ، وهذا ما يقلق (سعيدة) . أما ما يمكن التقاطه من الوقت ، فتهدره بكامله في مواجهة المرآة ، التي تخطفها منها أمها ، وهي تنثر فوق رأسها

عبارات قاسية ، عن ضياع الوقت ، والاهتمام المبالغ فيه في زينتـها مع هذا اللوح الزجاجي الشيطاني .

أقفل (بن رابح) مخلفا كلامه ذاك في صدر (صالحـة بنـت أحمد) ، وصورة وجهه الشبيه بوجه التيس بلحيته القصيرة .

لم يكن يتعب الرائي إليه ، في أنه يخطو آخر الخطوات في ذيـل الأربعين ، (فإلى أين يغدو فكر هذا المستزيد ، في النساء والذراري.. لتأخذه مصيبة ، تريح منه الأهل والناس . ألا يخجل .. لـو أرادت زواج سعيدة ، لزوجتها قبل سنتين من ابن فـلان ، في القريـة .. دعيـه يا بنت أبيك يسأل الناس ، إن ما رغبت في زواجها ذات يوم مضى ، لن أزوجها ، إلا من واحد ترضى به وأرضاه .. هل جننـت يا أبن رابح) .

و . .

(راحت أيام ، وجت أيام) كما يقولون ، وجاء مرسول مـن (ابن رابح) ، إلى (صالحة بنت أحمد) قال :

- (. . ابن رابح ، يقول ، بعد ما فكرتي، في الموضوع اللي بينك وبينه .. ايش تقولين ؟) .
- (. . روح قل للي أرسلك .. ما بيني ، وبينه موضوع) .

أدرك (ابن رابح) أنها لن ترحب به ، وتذكر ما قاله صاحبه (عامر) ذات مرة ، وهو يطوف معه على بيوت القرية ، ويقفان على مقربة من بيتها .

حك رأسه وقال لخاطره ، يبدو أن ثمرة الموضوع، ستكون شعيرا ، وكما يقولون : (حنطة .. وألا شعيرة ؟) ، ها إنها شعيرة ، فلو كان الفقيه في يدي ، لربما قدر على إقناعها ، فلم لا يزوره ، يعتذر ، ويفرك الريالات في يده، و .. دخل على الفقيه ذات ليل ممطر ، لم يعجب الفقيه فهو يعلم أن (ابن رابح) التاجر ، والذي قال عنه وقال ، تأتى به المصلحة ، ويمحو الضغائن الضيقة بالمال والآن .. (ما بك يا فقيه الأيام المواضي .. لا

جماعة في يدك ، ولا شيء ينفعك ، غير الريـــالات ، فخـــذ أعـــط معـــه، لتر ما جاء به إليك في هذا الليل) .

قدم لـــه القهوة المبهرة بالهيل والجتربيـــل ، ودفـــــأه وبـــدل ملابسه المبتلة بالمطر ، وفـــرش له لين الكـــــلام ، وضـــرب علـــى صـــدره ، وخلل في لحيته ، لاقتناص اللحظة المطـــاردة .

قال (ابن رابح) ، العلم والحل والربط بيدك يا فقيه ، أطلب مـــــن الريال إلى الألف ، لقد كنت تعديت على صحبتك معي ، و اليوم .. عفا الله عما سلف . جئتك لتقنع (صالحة بنت أحمد) ، تزوجـــــني بنتها ، وتبشر مني بما تريد .

خاب أمل الفقيه .. لقد جاءه يطلب أمرا ، لا يد لـــه فيـــه ولا قول ، فبنت أحمد ، لا تخرج عن شور الجماعة ، والجماعة قـــاطعوه مقاطعة السكين للحبل . (لكني .. سأقبض الريالات ، وأمنيه بمـــــا تمنى.. ينقضي يوم ويومان ، وأسبوع .. وفي كل وعد ، أقول لـــــه أصبر، ويأتيك الخبر اليقين) .

على هذا ..

قال الفقيه لضيفه الدافئ ، أنه جاء كما يقولـــون (في الســـاعة المباركة ، وطلبه مقضي ، فرك يده بالخشخشة ، وأسمــــاه بالخـــير، وسرى برقبة منتصبة .

بقي (ابن رابح) أياما ، وأسابيع .. ينتظر الجـــواب فيجيبـــه الفقيه على ما كان قد وضعه خاطره .

ذات يوم قال له واحد من الجماعة ساخرا :

- (.. سمعت أنك بتخطب بنت صالحة، يا ابن رابح)

- وكان قد ألفاه في سوق القرى ذات صدفة .. أجابه :

- (إن شاء الله ، إن كان ، فيه نصيب) .

- (أظنك ، رحت .. تتوسط بالمنعزل .. فقيهنا) .

- (قلت لك ، إذا كان فيه نصيب) .

- (شوف ، يا .. ابن رابح ، ترى البنت، بنت الجماعة، وما بتتزوج ، إلا واحد من قريتها .. مثلما تبغي هي وأمها) .

حك لحيته الماعزية ، وأدرك أن الفقيه إنما كان ينتقم من إهانة غطاه بها ذات يوم ، فماذا هو صانع .. يعوضه الله فيما خرطه له من ريالات ، ويترك الأيام تدور ، لتحط ذات وقت مناسب ، يعرف منها كيف يأخذ الريال بعشرة ، وإلا لن يكون تاجرا قد علمته تجارته الشطارة .

* * *

كانت (سعيدة) تحمل على رأسها طشتا مرتفع الحواف، ظهرت قلة من الملابس في حفرته العريضة ، تمشي في الطريق الذاهبة إلى مسيال الماء ، الذي يسقي منه أهل القرية حلالهم، ويغسلون ملا بسهم . تتقدمها أمها بخطواتها السريعة المتتابعة .. فتتبعها (سعيدة) كأنما تقتبس الطريق بمشيتها الدقيقة .

تنتصب كالغصن ، وقد ظهرت يداها البيضـــاوان المنقوشـــتان بالحناء ، تلزمان حافة الطشت على رأسها ، وتقطران كما يقولـــون (بالزين) .

قعدت مع أمها على المسقى ، وراحتا تخرجان مـــلا بســـهما، وملابس ابنها الذي سرح إلى المدرسة منذ الصباح الأول .. كانتـــا تتحدثان ، وتصمتان ، وتغنيان بصوت لا يســـمع مـــن بعيـــد ، ثم تصمتان ، وتتحدثان ، وجاء على لسان (سعيدة) طـــارئ البقـــرة التي لا تنسى يومها ، فردعت خاطرها وعدلت عـــن ذكـــر هـــذا المـــاضي على أمها . كانت الأم أيضا ، قد خبأت في خاطرها ذكـــر بقرتها وحادث موتها في هذا الموقع ، قدام أمها .

غنت (سعيدة) بمقطع قصير من قصيدة متداولة ، لا علاقة لهـــا بما هما فيه .

على ضفة الطريق التي تلتقط الهابطين إلى سوق القرى ، وتحمـــل الذاهبين والقادمين من الناس والحلال ، تراخى بيـــت بـــنى طابقـــه الأرضي الوحيد ، مثلما بنيت بيوت خلـــق الله ، مـــن الحجـــر ذي المدماك العريض ، ببابين مهذبين بـــالقدوم ، ومحفوريـــن بـــالنقوش

المدهونة بسواد القطران ، وبنافذتين أحدهما نصف مفتوحة مجـــاورة الباب ، والأخرى تفترش الساحة الأمامية للبيت ، مســاحة تقــدر بمساحة البيت ، تحيط به من الجهتين الشامية واليمانية ، وفي أحدهمـا صفائح تنكية متجانبة فتك الصدأ برؤوسها ، تطل منــها نباتــات . وعلى مقربة مكان مجمع الرماد .

هنا تزوجت (صالحة بنت أحمد) ، في داخل هذا البيت جاءهـا خبر وفاة زوجها ، الذي سافر مع الناس في شهر الحـــج ، وقــامت ثلاثة العزاء ، وهي تحمل في بطنها جنينها (أحمد) وبين يديها بنتــها (سعيدة) في الثالثة .

هنا عاشت أيامها ، وفتافيت عمرهـــا ، وإيقاعــات نبضــها المعجونة بالحلوة والمرة ، هنا .. شربت ، وأكلت ، ومشـــطت رأس بنتها ، وهزت مهد ابنها ، وتشمست في مواسم الشتاء والخريف .

واليوم . .

جاء ناس غرباء إلى القرية ، يلبسون سراويل طويلـــة وســوداء وزرقاء ، وقمصانا ملونة ، وعلى رؤوسهم قبعات تحمـــي عيونهـم وشعورهم من الشمس ، كانوا يخططون الطريــق بدهــان ابيــض،

ويرقموها بامتداد مستقيم ، ويقفون عند زاوية بيت (صالحة بنـــت أحمد) الذي يصادف أن يقع في طريق قياساتهم ، فيكتبون بالدهـــان الأبيض خطوطا وأرقاما ويرحلون .

قال الناس ، أنهم سمعوا بأن طريقا ممـــهدا ســيعبد إلى جنـــوب الدنيـــا ، سيمر بالقرية من أسفل الجبل ، قالوا أنه سيأتي من كـــل مكان و ضعوا به دهانا أبيض ، وإذا كان يجئ على البيوت ؟ .

يزيلونه .

صاحت (بنت أحمد) ، وبلغت شـــكواها علـــى كـــل أذن في القريـــة، فاستعد أعيانهم للبحث في الأمر .

بعد مراجعات ، لم تلق جوابا مرضيا ، قيل لهم أن البيـــت ، أو الأرض الزراعية التي تقع تحت شق الطريق ، يعطى صاحبها تعويضـــا من المال من الحكومة .

بقيت (صالحة بنت أحمد) ، وجرت معها شهرا وشهرين، حتى أنها اطمأنت بأنه لن يأتي بيتها الخلاف .

ذات صبح صيفي ، كان على مقربة البصر ، مــــلء السـمع، سيارة كبيرة صفراء بسكين أمامية كبيرة ، تزيل الصخور والـتراب، وكل شيء أمامها .

جاء الناس وبيدهم دفاتر، سألوا عن كبير القرية ، واصطحبوه إلى بيت(صالحة بنت أحمد) .

نظر الرجال إليها ، وقال بصوته الهادئ الثقيل :

(اسمعي ، يا بنت الرجال، هذا أمر بشق الخط من فوق كل بيــت، وكل مزرعة ، في الطريق) .

أمسكت (صالحة) على جانبي رأسها ، وقالت :

- (يعني .. يابو فلان .. بيهدّون بيتي ، وين أروح ؟) .

- (والله ، أنا ، لا بيدي ، ولا بأيدك) .

- (يا لطيفنا .. ويش أسوي بحالي ؟) .

- (يقولون ، بيعطونك تعويض) .

- (.. أنا، ما أطلع من بيتي ، لو أعطوني .. مال الدنيا)

جاهد الرجل ، ليأخذ منها الرضى ، ويقنعها بأن الأمر لا خيـــار فيه ، لكنها كانت تحتد في القول ، وتضع يديها على رأسها وتـــردد (هوه .. يا قطع نصيبي) .

ثم تلفتت حولها ، وقعدت كالصخرة القاسية على عتبة البيـــت، وقالت :

- (أسمعوا .. تعالوا ، اقلعوا بيتي . هدوه فوقي .. أنـــا ماني طالعة منه) .

لم يتحاور معها أحد ، بل نظروها قليلا ، ومضوا . أما الرجـــل الكبير فوقف صامتا ، ثم استدار ، وعيناه نحو الأفق .

بعد يوم ، كان التراكتور الأصفر الكبير ، يزحلق في الآذان أزيـــز سيره المجترر القوي ، ويتأهب لهدم البيت .

كانت (صالحة بنت أحمد) ، تقعد على عتبة البـــاب تمســح عينيها ، وتحوش ابنها الذي انفلت من يدها ، ليقذف السكين الكبيرة بالحجارة ، فتصيح به ، وتصيح به أخته (سعيدة) من خلف أمها ..

كان الناس يقفون دون كلام في واجهــة الســاحة ، جــاءت جارتــها فتحدثت معها بكلام طويل ، وبعد قليل لمت أواني قليلــة من الداخل ، وصرة كبيرة ، ومهدا بان عليــه عــدم الاســتعمال، وأشياء أخرى ، وفاض بها الخرج الذي شدته على ظهــر الحمــارة، التي اقتادتها وجاءت إلى (صالحة بنت أحمد) وعيالها ، لتسحبها مــن يدها .

كانت الجارة تجذبها بكل قوة يدها وتقول (هيــا ..قومــي يــا مخلوقة، ما حد يقدر.. يعاندهم) ، وكانت بين لحظة وأخرى تمــد كم يدها لتمسح قطر عينها الحامضي ، وتداريه لكيلا تراه .

عندما قعدت في بيت جارتها ، ولثامتها البيضاء تغمــر نصــف وجهها السفلي ، وتغطي كتفيها وصدرهــا ، لم تتنــاول فنجــان القهوة.. بل طلبت ماء ، وشربته .. بقيت صامته لا تتكلم ، وبقــي ذلك الصوت الذي يرج الأسماع ، كأنما يهدم الضلوع .

سيرة شخصية

عبد العزيز صالح محمد بن مشري

ولد في قرية محضرة ،بمنطقة الباحة(جنوب المملكة العربية السعودية) عام ١٣٧٤هـ ، وتلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي بها.

تفرّغ للقراءة الذاتية والرسم والكتابة الإبداعية مبكراً ، حيث أعاقته ظروفه الصحية عن استكمال دراسته أو الانتظام في عمل وظيفي .

تميز بغزارة الإنتاج وتعدد الاهتمامات(قصة- رواية- شعر - رسم - خط- موسيقى-كتابة اجتماعية) ونشر إنتاجه ومساهماته في معظم صحف المملكة وفي أبرز المجلات الأدبية العربية، وقد صدرت له الأعمال التالية:

١- باقة من أدب العرب(وهو عبارة عن مختارات تأسيسية من نصوص التراث العربي).

٢-مجموعات القصص القصيرة التالية،بشكل مفرد (موت على الماء- أسفار السروي - بوح السنابل- الزهور تبحث عن آنية - أحوال الديار- جارد ينيا تتثاءب في النافذة)، وقد أعيدت طباعتها

من قبل أصدقاء الإبداع في يناير عام ٢٠٠١م لتمثل الجزء الأول من سلسلة الأعمال الكاملة التي يأمل محبوه في إصدارها تباعاً.

٣- الروايات التالية منفردة (الوسمية- الغيوم ومنابت الشجر- ريح الكادي -الحصون - في عشق حتى - صالحة -) وترك روايته الأخيرة مخطوطة وهي بعنوان "المغزول".

وقد رأينا إعادة طباعة أعماله الروائية في جزأين ، هذا أولها، أما الثاني فسيضم (الوسمية - في عشق حتى - المغزول) وستصدر لاحقاً .

٤- "مكاشفات السيف والوردة "، وهو كتاب يضم سيرته الإبداعية والثقافية ، وقد تمت إضافته إلى الجزء الأول من مجلد الرواية الذي بين أيديكم ، كمقدمة لأعماله السردية.

* ترك الأعمال المخطوطة التالية والتي يطمح الأصدقاء إلى جمعها وطباعتها في سلسة كتب :

أ -"القصة القصيرة في المملكة"، وقد حوى بعض قراءاته وتأملاته عنها.

ب - ترنيمة (نصوص شعرية)

ج -ترك عدداً كبيراً من اللوحات الفنية الزيتية، والرسومات المخطوطة بالحبر.

* للفقيد مساهمات غنية في مختلف المنابر الثقافية ، وقد شارك في تحرير الملحق الأدبي لجريدة اليوم " المربد" من عام ٧٥-٨١م، وأسهم بالكتابة الأدبية والاجتماعية في مختلف الصحف السعودية.

* تزوج في عام ٨٠م من فتاة أردنية من أصل فلسطيني ,وهي السيدة "ناهد"، وقد أهدى إليها مجموعته القصصية "أسفار السروي" ، و حيث لم ينجبا نظراً لظروفه الصحية، فقد اختار- بطريقة نبيلة لا يباريه فيها أحد- أن ينفصلا شرعياً، ليتيح أمامها فرصة الزواج والإنجاب ، وقد انفصلا في عام ٩٠م، ثم تزوجت فيما بعد وأنجبت ، وكان عبد العزيز يستشعر السعادة الحقيقية بذلك.

* أصيب بمرض السكري وأدّت مضاعفات المرض وأخطاء العلاج مع مرور الزمن إلى التأثير على البصر، واختلال توازن حركة المشي، والفشل الكلوي، واضطراره لغسيل الدم (الديلزة)، وكذلك تعرضه إلى ضغط الدم.

* أجريت له عملية لزراعة الكلى في مستشفى الملك فهد بجدة في النصف الأول من عام ١٩٩٣م، وقد تكللت بالنجاح ، وساعده ذلك على التألق والإبداع في السنوات الست الأخيرة من عمره، ولكن " الغر غرينا" بدأت بغزو أطرافه، فتم بتر إصبع من يده

اليسرى، ثم بترت القدم اليمنى ، وفي سنة موته بترت ساقه اليسرى حتى الركبة.

* توفي رحمه الله في مستشفى الملك فهد بجدة يوم الأحد ، الساعة السادسة إلا ربع مساءً بتاريخ ٧/٥/٢٠٠٠م، وكان إلى جواره أخوه المخلص أحمد مشري، وصديقه الوفي سعد الدوسري، و قد ووري جثمانه الثرى في مقبرة الفيصلية بجدة، ويقع قبره في الجهة الشرقية من المقبرة على مسافة أربعة أمتار من الجدار الشرقي، وثمانية أمتار من الجدار الشمالي.

فهرس المحتويات

" يعتبر عبدالعزيز مشري من المبدعين الروائيين البارزين في السعودية وفي الوطن العربي، حيث تتميز كتاباته بدرجة عالية من الصدق الفني، الذي استطاع من خلاله تقديم وجدان الإنسان السعودي الضارب بجذوره في أعماق التاريخ وتراث الحياة القديمة، ولذلك تنبعث من ثنايا سرده الروائي والقصصي، الذكريات والحكايا المفعمة بالشجن والتشبث بالجذور"

الروائي "صنع الله إبراهيم"

" حبست نفسي في غرفتي يوماً كاملاً بنهاره وليله لقراءة المشري وإعادة قراءته، وكما قلت (من قبل)، لم يشد انتباهي في الأعوام الأخيرة أي عمل محلي أو عربي سوى "الطوق والأسورة"، وسوى "الوسمية"، وقد أحسست أنه عمل أدبي لا يرقى إلى مستوى "الطوق والأسورة" فحسب، بل يكاد يرقى إلى مستوى أي عمل أدبي عالمي كرواية "مائة عام من العزلة" لماركيز.

(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم ١٤ ابريل ١٩٨٨م) .

الناقد : عابد خزندار

" ومنذ أن عرفت "المشري" وأنا أتشبث بأجمل وأعظم ما فيه، وما في كتابته، وهو هذه القدرة الغريبة العجيبة على التعالي فوق كل ألم والتسامي بكل معاناة، إلى مرتبة المعاناة الإبداعية المنتجة لهذا النص الإبداعي الجميل المتصل أبداً "

الناقد : د. معجب الزهراني

" وحين تقرأ للمشري، فأنت أمام إشراقات إبداعية منهمرة من ثقوب التجربة في احتكاكها بلحم الواقع في شراسته وخشونته وتوليفته العجيبة، أنت أمام عمل يتمرد على مواضعات الهيكلة والقولبة والتقنين والتنظير، فهو يقيم هندسته الخاصة من شظايا الشروخ التي عصفت بكيانه الإنساني على المستوى الذاتي والعام معاً .

الناقد د. محمد الشنطي

أصدقاء الإبداع

أصدقاء عبد العزيز مشري